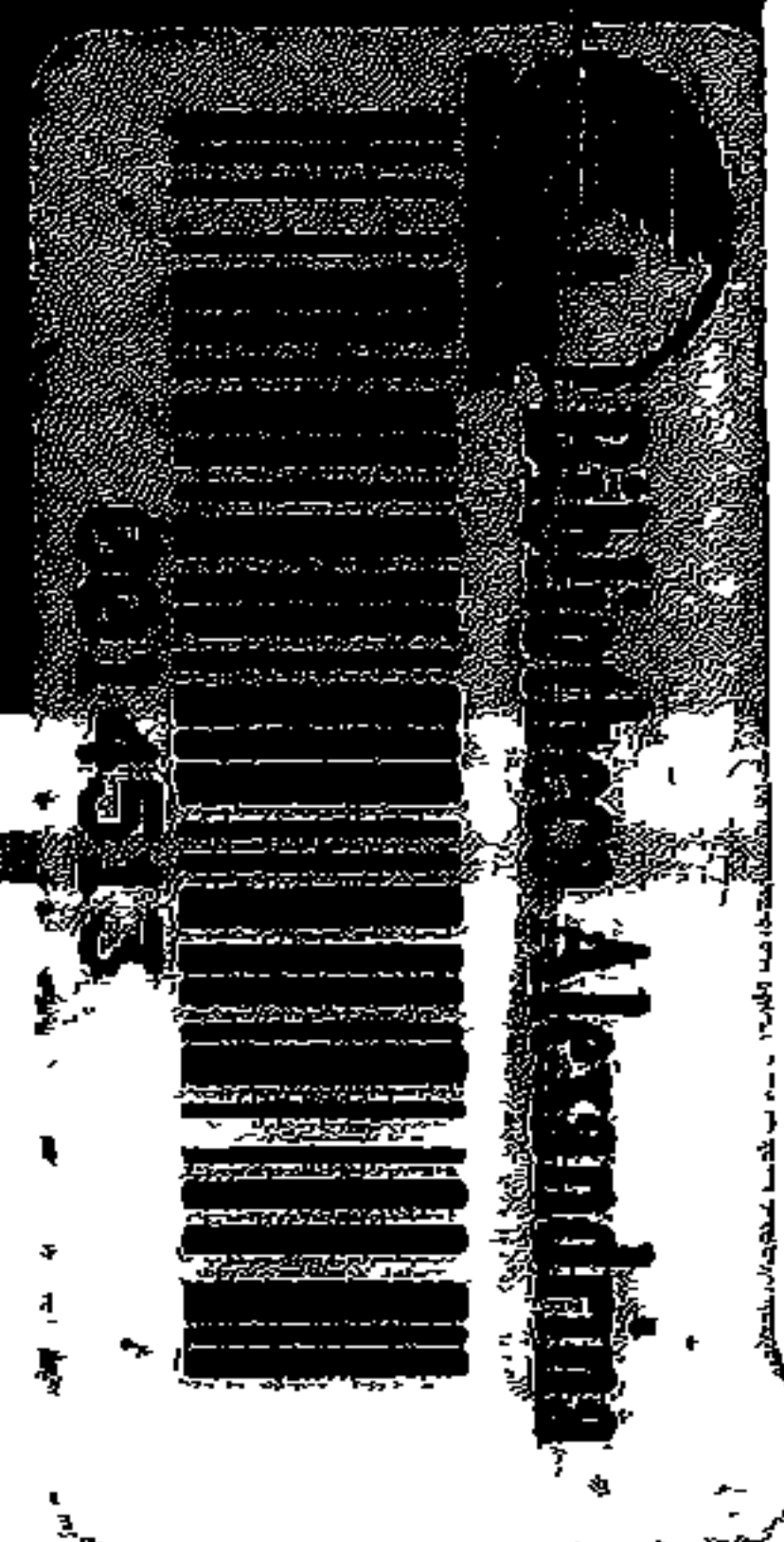


غادة السَّمان

مذكرات



حُبِّت

لوحات الكتاب بريشة الفنان الكبير
رفيق شرف

المشرف الفني : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
لوحة الغلاف الأول : للفنان هنري روسو
صورة الغلاف الأخير : المؤلفة ، بكاميرا الفنان حسن حوماني

غادة الشّمان

حُبّ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان

بيروت - ص . ب ١٨١٣ ١١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى : ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣
الطبعة الثانية : ايار (مايو) ١٩٧٤
الطبعة الثالثة : نيسان (ابريل) ١٩٧٧
الطبعة الرابعة : كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩
الطبعة الخامسة : كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠
الطبعة السادسة : تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨١
الطبعة السابعة : شباط (فبراير) ١٩٨٣
الطبعة الثامنة : ايلول (سبتمبر) ١٩٨٥
الطبعة التاسعة : آذار (مارس) ١٩٩١

أهدي هذا الكتاب ،
الى كل الذين كان يمكن أن أحبهم لو عرفتهم .
الى الرجال الرائعين ، المجهولين
والمدن النائية التي لم أطأها ،
والجبال ، والنجوم ، وكائنات الطبيعة العظيمة المفترسة والأليفة التي
لم أمرّ بها ،
الى الأنهار ، والغابات ، والثلوج وشروق الشمس في قرى لم أزرها...
الى كل أولئك الذين كان يمكن أن أحبهم لو عرفتهم ...

غاده

مقدمة

يا من تقرأ سطور هذا الكتاب ،
إنك ترحل الى قلبي ،
تتجول في ركن منسي من زواياه .
ومع كل صفحة تطويها ، تفتح باباً الى كهف الماضي .
وكلما قلبت الصفحات ، كلما أوغلت في أحشاء زمني الضائع .
فلحظات الحب - التي تلقي القبض عليها سطور هذا الكتاب - ارتأيت
أن ارتبها ابتداء من الحاضر ، وعودة تدريجية الى الماضي ، ماضي قلبي
منذ خفقات المراهقة الأولى .
وأعترف بأن بعض ما ورد في الكتاب سبق نشره باسم مستعار ،
والباقي باسمي (الشرعي) .

واعترف بأنني قد لا أكون (معجبة) بكثير مما يضمه الكتاب خصوصاً
في (كتاباتي) الأولى القديمة ، لكنني ارتأيت أيضاً نشرها كما هي دون
أي تعديل أو تحوير . وهو موقف قررت اتخذه نهائياً بالنسبة لكل نتاجي
القديم وبصورة خاصة ما خططته في مرحلة المراهقة سواء من قصص أو
خواطر ... وهو موقف اتخذه عدد كبير من الكتاب لدى إعادة طبع

فتأجهم القديم ... وأعتقد أن الاصفهاني تلخص الداء والدواء في قوله :
« إني رأيت انه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو
غير هذا لكان أحسن . لو زيد كذا لكان يستحسن . لو قدم هذا لكان
أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو
دليل استيلاء النقص على جملة البشر » .

بيروت ليلة ٢٣ - ٨ - ٧٣

لأنني أحبتك ..

ها أنت تجثم فوق كل لحظة من لحظات حياتي كما الليل المليء بالأسرار
يجثم فوق صدر المدينة ...
ها أنت تحتل غرف عمري المزدهمة بالرجال والذكريات ، تطرد الجميع
من النوافذ كما الشمس تطرد الأشباح حين تضيء ...
ها أنا امرأة ضجرة تنام سأمًا فوق فراش محشو برسائل الحب التي
كتبها العشرات لها ، ها أنت تأتي تشعل النار في رسائلي وفي ذاكرتي
وضجري ... لا أملك إلا أن أتبعك عارية القدمين حتى آخر العالم ...
ولكنك يا حبيبي كطائر البرق ، تمر بي سريعاً كالشهقة ... وتمضي ...
وتترك في صدري غيابك مثل سكة محراث تشق صدر الأرض ... مثل
نار تلتهم غابة .

غيابك هو الوجع . حضورك كحضور الأعجوبة ، ما تكاد تأتي حتى
تختفي ، وتخلف في قلوبنا الى الأبد ذكرى حضورها ... حياً كاوياً جديداً
في كل لحظة ..

ها قد استطعت أن تغرس حبك في قلبي ، نابضاً في كل لحظة ،
ومنتقار نورس الحب يظل ينقر في القلب ... كل لحظة ... كل لحظة ...

أتساءل : كم يمكن احتمال ذلك ... الحب الفاشل موجه ، ولكن
الحب المتبادل أكثر إيلاماً .. لا شيء يشفي غليله سوى الاحتراق المشترك
أو الموت المشترك ... ولا نملك حتى حق الخيار بينهما ...

أيتها الشقي .
لو لم تحبني لاستطعت أن أمسح صورتك في عيني كما أمسح البخار عن
زجاج نافذة الذكرى .
لو لم تقل لي بحرارة : لقد استطعت أيتها العجربة أن تنفذي الى ما
تحت جلدي .. الى أعماقي ...
اوه أيتها الشقي ...
ليتك لم تحبني ...
ليتني لم أنفذ الى ما تحت جلدك - كما تقول - .
فقد صرت اليوم سجيناً جلدك وأعماقك ...
لم أعد أملك إلا أن أنبض مع عروقك ... أتدفق فيك ، أحيا وسط
تياراتك الداخلية ...

إذا غضبت ، كان العالم هو الغضب . وإن فرحت أرقص فرحاً تحت
جلدك ... وإن رحلت ، ترحل ذاتي عني معك ... وتخلفني في صمت
الليل مثل صدفة ينوح فيها الصدى ، مثل هيكل فارغ لكائن مات منذ
زمن بعيد ولم تبق سوى قشرته ...
دونك أنا قناع ... حقيقتي ترحل معك ... دونك أنا جثة سرية
الموت ، وحياتي تتحقق سجيناً ذكراك ، كأجنحة الفراشة تحت كوب
زجاجي .. كف عن حبي .. أتوسل اليك كف عن حبي .. أشتهي
حريتي ... أخرجني من تحت جلدك ومن مسامك .

اوه أيتها الشقي ...

ليتك لم تقل لي انك بكيت لأجلي ... انك بكيت كالأطفال وهتفت
باسمي مراراً وسط الليل المقفر وكانت دموعك سائلاً نارياً كاوياً ...
ها دموعك تغرقني ... حزنك يفتني ... مخاوفي عليك ومنك تفور في
رأسي كشعابين الماء السامة ... أية دوامة بعثنا ؟ ... أية مأساة ابتدعنا ؟
أية لعبة شطرنج جهنمية لا تنتهي مارسنا ؟

« احبك » ... « احبك أيتها العجربة » ... قلتها لي فجأة وصمت
طويلاً . وصمت أنا أيضاً ... وعرفنا كيف يصير الصمت شعراً ...

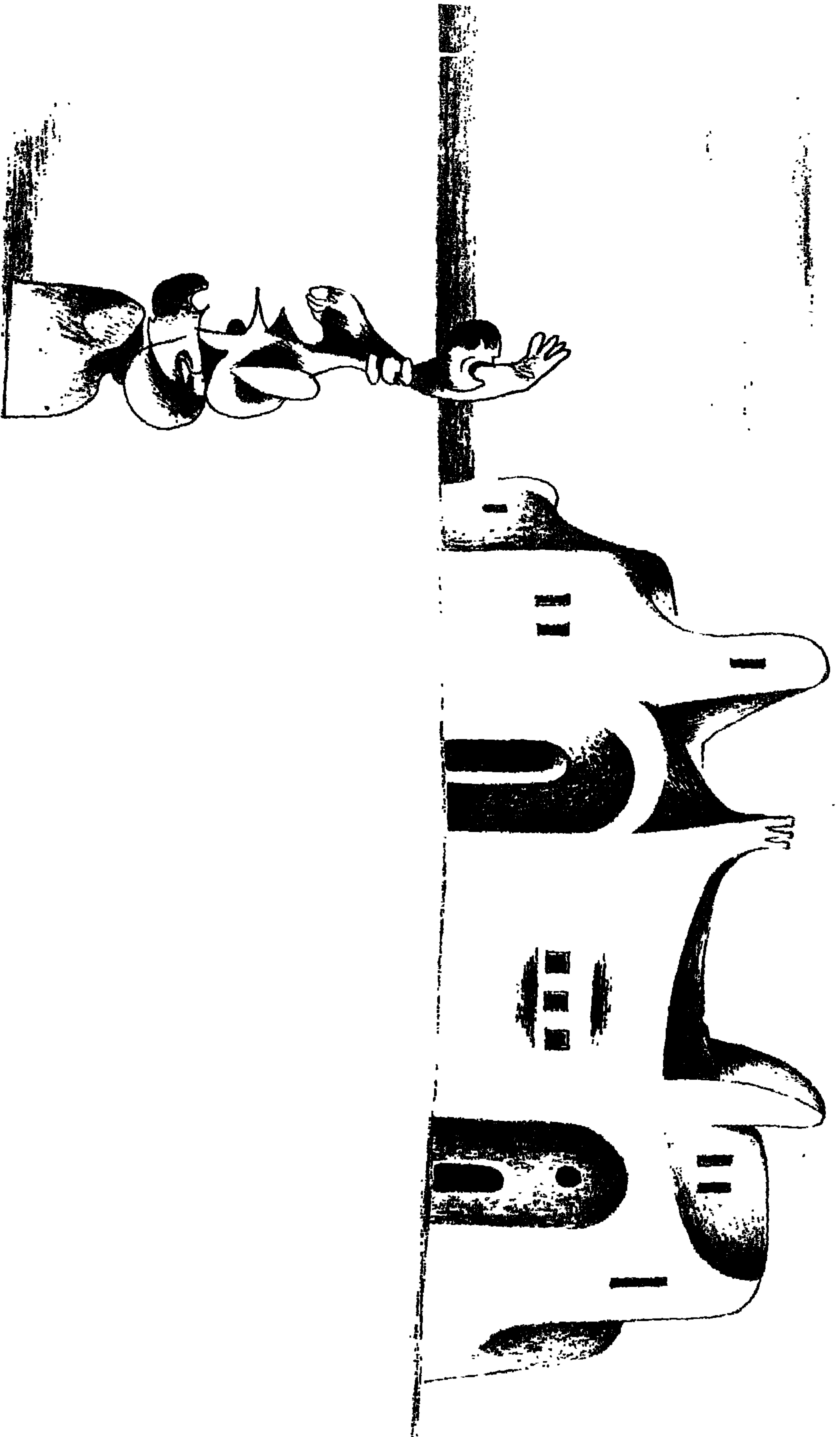
وجذبتني اليك لتختلس قبلة . قطفتها من شعري بسرعة وعدت الى
مكانك في المقعد كأن شيئاً لم يحدث ..
أيها الشقي ... « بعد أن تقطف زهرة من غصن ، يعود الغصن كما
كان . أما القلب ، فلا » ...

سأظل أكتب اليك ...
لأجل أن لا أنسى ،
لأجل انني أحبيتك ،
لأجل انني أحبيت ...

١٩٧٣

في عنق الزجاجة .. كان لقاءنا !

بللتي بالليل الحزين الماطر ، وبجنانك ..
وأحييتك ...
وها أنت عبثاً ترحل عن لحم ذاكرتي مثل نصل سكين يغادر جرحه..
ترحل ؟
تغطس في ظلام النسيان ؟..
انطفئي في حياتك كشمعة حاصرتها الرياح ؟
كالعباءة ، للمنتك حول جسدي ..
كالكفن ، رضىتك للقليل الذي تبقى لي .
يا حبيبي ،
بالنحل ملأت رأسي ،
بملايين الأسئلة التي لم تكن تخطر لي ببال ...
جسدي لفافات أسلاك شائكة .. كيف استطعت اختراق أسواري ؟
في عنق الزجاجة كان لقاءنا ...
لا قبل ذلك ، لا بعد ذلك ، لماذا ؟
ماذا أقول لك ،
غير ان قلبي يحصد الحزن بمنجل فراقنا ...



الحزن ،
يزحف إليّ من كهوفه غير المنظورة ،
اسقط تحت سنايكه
اسقط ، اسقط ،
غيابك - الحضور مقصلي ..
اسقط نازفة الجرح السري ..

حيناً .
زهرة الساكورا اليابانية ، تنبت مع الفجر ، وتموت مع الغروب ...
حيناً .
ها أنا أقطر حزناً .
أعضاء جسدي أغصان شجرة تتزف الحزن والمطر والشوق ...
حيناً ،
اعدتني الى عصور الموت حباً ،
الى عصور الفروسية ،
والنساء اللواتي يركضن خلف الرجال الأقوياء حتى حدود الحرب
والزلازل ..
اعدتني ،
الى عالم اللغة الملونة ،
الى مفردات كالشوق والانتظار والحنين ، الشوق ، في عتمة الضجر ،
ماذا تبقي سوى ظلك ؟
افتقدك ،
والافتقاد ... (هل تذكر ..) ..
والافتقاد ، عذاب

كالعذاب الذي أحسه أمام كل الأشياء الجميلة وكل شيء رائع مثلك
هو شيء لا انساني ، ناء ، مستحيل الامتلاك ، كله تحدّ مثل تماثيل
الآلهة العتيقة السرية .. -

أيها الشقي ،
وطيّ معطفك سوط ، وشوارع مظلمة مغسولة بالمطر والحرر الرديء ،
ماذا تملك لي وأنت بعيد هكذا ،
سوى حفنة جديدة من الحزن ، والموت الأخرس ؟

هل تصدق ،
انني استطيت أن أودعك بصمت سندية يقطنها الطير النادر تارة ثم يغيب.
هل تصدق .
انني سأحتضنك بلا مبالاة النسيان ،
سألقاك ، باستهتار السياح في « باص » سياحي واحد ،
سأحييك .
كما المضيقة في طائرة تلقي تحية المساء ، بحياذ وتهذيب ،
هل تصدق ،
ان رحلة الزحف فوق الزجاج المطحون ،
انتهت ،
والوجع بك يحتضر ويلفظ آخر أنفاسه ؟
خالد وجعي بك ،
طويل احتضاري كما النار التي التقطت طرف غابة لامتناهية .
أحبك ...
أي نصر ، وأي هوان
حين تكون بعيداً هكذا ،

وتحتل أيامي بصلف هكذا ،
وأبحث عنك في الشوارع
وأنا أعرف أنني لن أجذك ،
وأبحث عنك بين الوجوه ،
ويدهشني لماذا أحب وجهك ، من بين مئة ألف وجه طالعتني هذا
الصباح ...
لماذا أنت ، أنت بالذات ؟..

حتى يأتي صوتك ،
ينهمر كما الاعجوبة ،
كما ألحان « باخ » في الكنائس عبر الارغن ،
كما الدمع المخبوق في سنوات القحط ،
كما الرسائل المجهولة الموقعة بالدمع وآثار الكحل ،
حتى يأتي صوتك
وتتهاوى كل القيم ،
المال ، والحظ ، والآخرون ،
تبقى أنت ،
وخرائط العالم نركض فوقها ...
وسهوب العالم نرحل عبرها ،
وحبنا الصادق كطفل ، الهش كطفل ، المليء بالطاقة على الاحتمال
كطفل ،
وتبقى أنت ،
وحبي لك ، كوكب لا ينطفئ ...
فتعال ...

١٩٧٣

كان يا ما كان .. حب

يا حبيبي
ما أحبيتك قط كما أحبك الآن لأنك جعلتني أكفّ عن حبك !
كيف استطعت تحقيق معجزة كهذه ؟..
كيف ، هكذا فجأة انقطع الوتر المشدود الذي كانه أيامي معك ،
ولم تعد ضرباتك توقع عليه غير لحن الصمت اللامبالي ؟
أية فرحة !
أن تشهر سلاحك ؟
أن تحشو غدارتك ، وتمسح الصدا عن أوسمتك ، وتجيء مطالباً بمزيد
من اقطاعية حبنا .. تطالبني بمزيد من الضرائب العاطفية ، ومزيد من
الولاء ؟
وتتهددني بالخليفة :
... أو ، ردي إليّ أيامي ، ردي إليّ أصباغي ولوحاتي وسطوري
وهمساتي ، وكل ما تبقى من تلك الليالي المبحرة في أحشاء الزمن ..
أن تنزلق من قم الصمت الى وحل تقديم كشوف حسابات
لأيامنا وليالينا وهمساتنا المسروقة ؟

أن تجيء جافاً كورقة نشاف لتمتص من عالمي الغامض ما ينخيل اليك
اني لم أمنحه بعد لك ؟
أن تجيء مثل المرابي (شيلوك) لتقتطع من لحم ذكرياتنا (الفائدة)
المرتبة على ما كان ؟
أن تجيء كموظف مصلحة الضرائب ، عبثاً تعلم بقايا رعشاتك على
قماش لوحاتك المنسية في بيتي ، أيام كانت شرايينك ريشة، ودمك أصبغاً
تريقها في كهوف عمري جدرانيات وفاء ؟
أن يسقط عن أناملك سحر البحث الصادق عن يقين (أناملك التي
كانت ترتعش في غموض عالمي كأنامل عاشق أعشى يبحث في الزلزال عن
وجه حبيبته بين آلاف الوجوه النازقة والهامدة) ؟
أية فرحة ! أية فرحة أن يدور ذلك ! (كنت ستظني أقول : أية
فجيعة ؟) ... أمام المعجزات ، أياً كانت ، هنالك دوماً فرحة ...
حي لك لم يكن المعجزة . المعجزة انني كففت عن ذلك ...

أية فرحة !
فأنا منذ كان الزلزال الرائع ...
أي منذ التقيت بعينيك الضاليتين ، وصار ذراعاك مجذافي ، وصدرك
مركبي ، وهديانك بوصلتي ، لم أقل لك قط انني أحببتك ...
ولم أقل لك قط انك ظلت طيلة ايام وليال هاجسي وعذاببي وطموحي
ومقبرتي وحلمي منذ كانت تلك اللحظة الحلم - المجزرة ..
كلمة أحبك أحسستها مدنسة ومهترئة مثل عتية خماره رخيصة يدوسها
الجميع ... ولم أقلها ... ولن ...
وها أنت ،
تخلعني عنك كما يخلع المالك الجشع عن داره مستأجراً كف عن دفع
قيمة الايجار ...

أن أقطن في صدفة حبك السحرية ، مقابل أن أقول لك كلمة مهترئة
هي «أحبك» ؟... لن أذنب عطائي ، ولو غادرت الصدفة ، وأبحرت
من جديد وحيدة في ظلمات بحار الغربة وكآبة مغاورها المسكونة بكائنات
الرعب والصمت ..

آية فرحة ...

أن أكتشف أن البركان الذي أضاء عالمي وألهبه لم يكن سوى جبل
طاف من الثلج مر ببحر ضياعي ، فكان لسع الجليد للوهلة الأولى كلسع
النار ...

آية فرحة ...

أن تنطفئ الشموس في عينيك ، وينعقد كوكبي عن تيهه المخمور
في مدارات عمرك النائية ..

آية فرحة ..

أن تلملم عن جسدي (الذي كان حتى عرفتك كوخاً مهجوراً يسكنه
عنكبوت الضجر) بصماتك ورماحك وفيضاناتك ...

آية فرحة ..

أنك لم تعد وشماً فريداً لا يمحى فوق لحم أيامي ... غامضاً كنتقوش
أقوام منقرضة ... مليئاً باللعة كجوهرة سوداء في موضع عين مومياء
فرعونية ..

آية فرحة

أنك أغمدت حقدك في صدري أعماق مما أغمدت حبك .. واثني لن
أقضي بقية عمري أبكي وثنك الذي لم يكن سوى فزاع طيور محشو بالقش
منصوب بحقل مررت به مرة في ضوء القمر ...

ونخطوط كفيك التي كانت أبداً خارطة عالمي ، ودروب ضياعي التي
لا أملك إلا أن أركض فيها وحيدة ، ألمم ذاتي عن أرصفتها المفروشة
بالثلوج والظلمة والرجال المخمورين ، عادت لتصير مجرد كف أخرى من

ملايين أيدي الرجال ... ولم يعد صعباً علي أن أصدق امكانية ارتدائك
لقفازات ... (القفازات لا تلفها القفازات) .. وملامح وجهك شبه
الغاضبة شبه العاتية أبداً للذنب سري لم أرتكبه، لن أقضي بقية ايامي أحل
الغاز كلماتها المتقاطعة ، ولن أجوس فوقها بشفتي ولن أغسلها بدموعي
علي أعثر علي الكلمة المفتاح ...

صرت أعرف الكلمة المفتاح .

انها الكلمة نفسها . « رجل » . ولكنه سيكون هذه المرة رجلاً
« آخر » ! ...

أية فرحة يا حبيبي ، أن تكف عن ان تكون حبيبي ، دون ان تدري
قط كم وكم كنت حبيبي !

لا تعد . فحبي ليس مقعداً في حديقة عامة ، تمضي عنه متى شئت،
وترجع اليه في أي وقت . لا تعتذر . فالرصاصة التي تطلق لا تسترد .

١٩٧٣

لأنّ الحرية خبز الغجر

يا غريب ...
أنا « فتاة الاوتوستوب » .
جسدي حقية سفري .
شعري وسادتي .
أصابعي أقلامي وشموعي . شراييني محبرتي ، ونزفي المستمر سطوري ...
لعل أمي كانت غيمة مسافرة .
أبي كان سيفاً من برق .
عرسها كان عاصفة ورعداً ، وكان أن نبتت أنا .
كالكمأة على شراع مرمي في محيط الوجود الغامض ، محكوم أبداً
بالرحيل من حيث لا يدري وإلى حيث لا يدري ..
أنا « فتاة الاتوستوب » . استقررت نهائياً في ارجوحة اللااستقرار ...
عجيرية بلا مرفأ . لا أبحث عن المرفأ إلا كي اضيعه . مرصودة للرحيل
والغربة . أبداً ضالة ولأمبالية ونائية كقارة ابتلعها المحيط ...
زائغة كامرأة من زئبق ... حزينة ومشتتة كأهداب عين اقتلعت
للتو .

لا أفهم توقيتاً إلا ما تفهمه الطيور المهاجرة من ساعة (بيغ بن) لو
حطت عليها. ذات مرة لتستريح .. لا أعرف عن النظام إلا ما تعرفه
الأرانب عن آداب الطعام .

أنا غجرية ، ولأن الحرية خبز الفجر ،
هل يستطيع حبك أن يكون خبزي وحريري ؟

١٩٦٩

شئىء اسمه .. الحب

اعرف يا حبيبي ، يا زين أشداء هذه المدينة ، يا أوسم رجالها ،
وأفتاهم ، وأفتكهم ...
أعرف أنهم يسألنك عني، عن تلك الغريبة، القادمة من حقول الكستناء
خلف الجبال مع الريح الدافئة . تلك النحيلة الشرسة كالقطط السيامية
المتوحشة ،
يسألنك عني ،

من أنا ؟ وما أنا ؟ أي سر أخفي ، أية تعويذة أحمل لأجتلبك إلي..
لأسورك بجسدي ، وتسورني بجسدك ، ورغم سياط الألسن الحاسدة
والناصحة والمذهولة والمباركة والباحثة عن تفسير ، رغم سباقها إلى رجمننا
ورغم كل شيء ، أقف وإياك منذ أشهر في ساحة المدينة ، متماسكين
متمازجين جسدين في جديلة واحدة ، لها نخلاء نخلة شاهقة متفردة في
صحراء من القحط ..

يا حبيبي يا زين الشباب الذي يعرف كيف يتمتع ويستمتع بالشباب ،
قل لصبايا مدينتك العجائز، اللواتي يثرثن وينفنن في العقد، كساحرات
العصور الوسطى ،

قل لعوانس مدينتك - عوانس نفسياً - رغم زيجاتهم المتعددة ومواهبهن
في التفريخ كالآرائب ، قل لأئدائهن المتهدلة كالضروع ، لأنها تسكب
اللبن فقط من دون الحنان أو حتى الشبق ،

قل لهن - أدلك عليهن . نقابتهن قرب نقابة الجزارين . يرتدين
قفازات الدانتيل وألستهن سكاكينهن - قل لهن ، هنالك شيء لا تعرفنه
يا سيداتي السادة ، واسمه « الحب » ..

قل لهن يا حبيبي يا زين الشباب ، الحب يأتي - حين يأتي -
كالزلازل : لا يطلب جواز سفر أو تأشيرة دخول . ولا يطلب يد
الأرض من سلطاتها الرسمية !..

قل لهن يا حبيبي يا زين الشباب ، الحب يتفجر حين يتفجر كالبركان :
لا يطلب اذنًا بالإقامة !... أو اجازة تنقيب .

قل لهن : الحب يتدفق كالسيل ، لا يتوقف أمام أضواء المرور
الحمراء ، ولا يسمع صفارات الحرس ، ولا يبالي بإشارات السير (ممنوع
المرور . طريق مسدودة . منحدر خطر ..) وإنما يجرفها كلها في طريقه...
ويعضي ...

قل لهن يا حبيبي ، يا زين أشداء هذه المدينة وأفتاهم .
الحب كالعاصفة ، لا تميز حين تحتاج بيتاً بين الدخول من الباب أو
من النافذة ، ولا تعرف ان قرع الجرس لا اقتلاع السقف هو وسيلة
الدخول ... وقل لهن يا حبيبي :

الحب كينبوع يتفجر في حضن صخرة ، دون ان يسأل (دائرة

الطابور (والشؤون العقارية في أرض من تقع هذه الصخرة وهل هي أرض
بور أم ملك مسور أم وقف أميري ...

قل لمن : الحب فارس اسطوري مصاب بفقدان الذاكرة ... عيشاً
يعي من الوجود حوله أي شيء يتجاوز حكاية حبه ... ولكن مملكته بحار
عجيبة الملذات ، لا يقتطفها إلا الجريء ، المستسلم لسقوطه الى القاع ...

قل لمن يا حبيبي

كانت تلك الغريبة ، لا تحمل ميزاناً ولا جداول جمع وطرح ولا
تهوى جمع الطوايع ودفاتر الشيكات ... ولا يرافقها مراب عتيق يعقد لها
الصفقات . ولا تعرف ألعاب الحياة ، ولا تتقن فنون راقصات السيرك.

قل لمن : أحبتي ببساطة تماماً كما تتنفس . ولذا كانت تمنح دون ان
تدري ، كما تستسلم أدغال الأعماق لصيادي اللؤلؤ والمرجان .. وكانت
تأخذ كما تمنح دون ان تدري ، كما تمتص أخاديد التربة التي شققها طيب
الصيف أول زخة مطر تحملها الريح .. دون ان تسأل الغيمة : من اي
قطر جاءت وحتام تظل قادرة على الاستمرار في الإمطار فوق حقولها ...

حدثهن يا حبيبي عن مملكة الحب ، ذلك الفارس الاسطوري المصاب
بفقدان الذاكرة ...

حدثهن عن بحاره الدافئة اللزجة الملونة ، تضميني إليك وأضمك إليّ
ونستسلم للسقوط بلا خوف من القاع .. نتسلق القاع بلا وجل من دوار
الأعالي .. نسقط معاً .. نتمسك بحشائش البحر .. أرقص عارية مع

عشرات الأسماك الهائلة التي تتلوى.. معي .. تلتف حولي ، تنزلق فوق
جلدي وتزرع الجمر بين عظامي ولحمي ...

ونرقص صلاة وثنية عجيبة الايقاع ، مجنونة الصخب تسخر من رتابة
راكبات الهواذج ... في القاع الحار الملون المزروع بالمرجان واللؤلؤ ،
أرقص وإياك غاربية مع ملايين الأسماك ، المستلة كالسيوف المنتصبة ،
كالرماح الافريقية في دغل يغلي بالثورة وأبحرة الحر المتصاعدة من الشقوق.
قل لمن كيف نركض ، بدأ بيد في القاع دون أن تغادر مكاننا ،
فتتحد ، ويغلي كل من حولنا ، وتتفجر اغانٍ مجهولة غامضة الصراخ
والضحك والشهيق والانتحاب كأغاني عرائس البحر الحبيسة منذ عصور
في كهوف غيلان الأساطير .. نركض دون أن تغادر مكاننا .. أقول لك
اني اطارد طيراً غامضاً لا أعرف اسمه ، وتقول لي انك تطارد مغارة
فارية الشقوق تنفتح على فوهتها ورود قانية الحمرة ، وقبل أن تقول لي
اسمها ، يأتي تيار النار الكاوي من أعماق أعماق ذلك البحر الهائج الغامض..
يأتي تيار النار الكاوي محملاً بالخصب والغزارة والنشوة التي تشبه الألم ،
ألم لذة الحصاد على حد المنجل .

ونسجد لتيار النار الكاوي ... ثم هدوء مذهل يلف البحار ، ليل
مدهش السكينة يسربلتنا ، هدوء داعم متعب كهدهوء أول فجر طلع على
نوح بعد انحسار الطوفان.. وفي عينيك يمتد غصن زيتون يمسح عن وجهي
عرق الفرح والتجدد ..

قل لمن ذلك الرحيل في النار الكاوي له قارب واحد اسمه الحب

— ومجدافان هما انسانان أحبا — وتلك معجزة في مدينتنا دونها المشي
على الماء !

قل لمن أيضاً اننا كنا نعرف سلفاً ان اسم هذا التيار الكاوي هو نهر
اللارجوع ... واننا أبحرنا ونحن نعرف انه نهر اللارجوع .. وهذا أهم
ما في الحكاية ..

لا .. قل لمن باختصار ، وهن يلتفن حولنا ليرجمتنا .. كانت امرأة
ربما ككل النساء ..
وكنت رجلاً ربما ككل الرجال ...
لكننا أحيينا حقاً ..

وهذا هو الفارق الوحيد. انه الخيط الرفيع كالشعرة الذي يفصل بين
ملكوت العماقة ، ومستنقع الأقزام ... بين أن نكون أحياء ، أو مومياءات
متحركة بفعل نوابض — زبركات — اسمها المجتمع !

لا ، لا تقل لمن شيئاً من هذا ، والا كنت كمن يلقي أشعار
شكسبير على قطع من ضفادع الغدير وبيغاواته وسحاليه وحراذينه ! ...

لا ، لا تقل لمن شيئاً ..
وعن صدرك سأنهض لأرجم كل من لا يحب ... سأرد عليهن بلغتهن
الوحيدة، لأن من لا يحب ، لا يعرف القراءة ، ولا الكتابة ، ولا الصلاة ،
ولا الفرح ، ولا العطاء ، ولا المدنية ، ولا حتى اشعال النار ولا حتى
أول مبادئ العصر الحجري الانسانية : حضارة آدم وحواء ...

عن صدرك سأنهض ، لأرجم كل من لا يحب .
ولكن يا حبيبي ليس لدي ثانية واحدة أضيعها بعيداً عن صدرك
وأهدرها في رجمهم ، - فنحن لا نملك إلا اللحظة ، بسلا بارحة ولا
غد - ، يا حبيبي يا زين الشباب ..

١٩٦٩



.. يا غريبى !

يا غريبى الذى سيعود غريباً ...
كصدى جرس ضخيم صدىء لكاتدرائية عتيقة ، يقرع ذات فجر
رمادي بارد ، حزناً على طفل شارد ، جمده الصقيع وغسلته العاصفة ،
(طفل قد يكون اسمه حبنا) ، كذلك كان وقع كلمات رسالتك الأخيرة
في نفسي ...
كلماتك الصادقة ، المحبة ، الوفية الصافية ، الواعية ، النازقة صدقاً
منذ مطلعها ... « الى التي ما أحبيت سواها بهذا المدى » ...
لو قلت لي : الى التي ما أحبيت سواها واكتفيت ، ولم تتبعها بقولك
« بهذا المدى » ، لغضبت من مجاملتك المفضوحة ، ولوجدت في سذاجة
صنارة الأكذوبة ما يحول بيني وبين ابتلاع طعمها الشهي ...
وكم ازددت إكباراً لك وتعلقاً بك وأنا أركض بمشاعري على حروفك
المكهربة بصدقها الممدودة على السطور أبجدية من الأسلاك الشائكة أزحف
فوقها بصدري العاري ...
أن تسقط جدران التمويه هكذا فجأة ، وان نخلع أقنعتنا وان اشاركك
ارتكاب الجريمة ، جريمة ان نقول الصدق ، جريمة ان نواجه الحقيقة ،
جريمة (بروميشيوس) ... — ولتغفر لي ولك مناقير نسور العقاب

— تلك هي بداية الحب — المأساة — الأسطورة .

قلت في رسالتك ان (التصورات العلية) لكل منا والشكوك هي ما يفسد على حبنا — الأسطورة ، هناة لحظاته .
لا .

لا أعتقد ان (التصورات العلية) لكل منا هي السبب (الحقيقي)
لداخس وغراء ايامنا ، لكربنا وفرنا ، لنجربك الذي تقضي نصف ايامك
لاغماده في جسد حي ، والنصف الآخر لمداواة موضع الطعنة، ونزفها ..
وأنا أيضاً مثلك القاتلة القليل .

بل حتى وأنا أدفع عن نفسي جراد التشكيك الذي تطلقه أحياناً حول
صورتني لتكسفها في عالمك ، أفعل ذلك وأنا أعرف انك لو كنت واثقاً
من شكوكك لما كبدت نفسك عناء العتاب او حتى الاستفسار .
وانا ايضاً ، قد أشهر على هائثا سوط مخاوفي .

ولكنني مثلك لا أفعل ذلك بدافع من (التشكيك الغبي) ...
كلانا يتعلل بالالحاح على التفاصيل والمبالغة في خلق جو مشحون من
(الحساب العسير) ليكون لنا شجار صغير نتهلى به ، شجار من ذلك
النوع الذي لا يكفي لتدمير علاقة ، وانما يدفع بكلا الطرفين لتأكيدهما! ...
كلانا يشعل ناراً صغيرة بحيث يعرف انه يستطيع اطفاءها متى شاء...

ألست معي في اننا نخلق الشجار الصغير خوفاً من ان تصفو سماءنا بما
فيه الكفاية فنرى بوضوح حقيقة ما وصلنا اليه ؟.. ويصعقنا ان نعي الى
أي حد توغلت فيّ وتوغلت فيك ؟ ويرعبنا اننا بدأنا نقلع بحبنا في نهر
اللاعودة ، نهر « الحب الصادق » ؟ يا أنت، يا أغلى من الموسيقى ،
ربما نهار لنا من شجارنا « صمام الأمان » الوحيد لأيامنا المجنونة الهوجاء...
ربما كان كل منا قد بدأ يحب صاحبه بصدق .

بصدق . أي رعب تحمله هذه الكلمة .. أي هول مجيد ..
بدأنا نفقد السيطرة على صاروخ علاقاتنا ...

لقد انطلقنا بحبنا ذات يوم صاروخ ملذات وبهجة وأفيون ونشوة ليكون
ملجأ لنا ومهرباً من قسوة الضجر والقيود والناس والروتين .. واذا بصاروخ
حبنا يصاب بعارض لم نألفه ولم نتوقعه .
انه مرض الصدق ... وبدلاً من ان يحملنا الى ارض الحذر والملذات
حملنا الى ارض الحقيقة والوعي .. الى ارض الزجاج المكسر والجمر وصخور
النار ويراكين الوحشة والشوق والغيرة واللهفة والرغبة في الاتحاد الكامل
لكل منا .

صار كل منا يريد ان يكون عالم صاحبه ، كل عالمه ، وهو يدري
انه لا يستطيع ..

.. ولهذا حينما تقسو أظواهر بلومك .. لكنني أحس بامتنان حقيقي
نحوك ، لأنك رضيت بأن تحمل مسؤولية لحظة لا مفر من ان تجيء .
لحظة إطلاق « رصاصة الرحمة » .. وحينما أقسو ، وأشد بإصبعي على
الزناد وأكاد أحمل مسؤولية اغتيال حبنا ، طفلنا المحرم الوحيد ، مع
العذاب أحس بصفاء من اختار اكليل الشوك ومسامير الصلب .. وأنسى
كل ما كان من فقاعات المشاكسة ولعبة شد الحبل (والغميضة)
ولا يتبقى في ذاتي إلا فرحة دامعة الصفاء كفرحة طفل في ميم مر بيابه
بابا نويل .. صحيح انه لم يحمل له هدية لكنه رآه حقاً وتأكد من ان
وجوده حقيقة ..

يا غريب .. سأقول لك بصدق ما يجب ان يحمله لنا ١٩٦٩ :
فراق فراق نبيل وكبير ، أمل ان يكبر حبنا بما فيه الكفاية ليرتضيه ..
أن نفرق . هذا كل ما تبقى لنا . فراقنا هو التوأم الملتصق بصدقنا ،

لا يمكن لأحدهما ان يحيا بدون الآخر !!
فلا تقل لي انك تضحى بأي شيء وبكل شيء من أجلي .. أتوسل
إليك لا تقلها ...
فالحب الصادق حين يكون (محرمًا) ، يصبح كفراش فقراء الهنود...
كله مسامير وأشواك ...
لذا ،
لا أملك ما أتمناه لك في ١٩٦٩ سوى علاقة أقل صدقاً ، وإخلاصاً ،
وحباً ، لتهدأ بها وتسعد ..
فقد كانت مأساتنا يا حبيبي اننا عشنا حبنا ولم نمثله .
وداعاً يا غريب . ووداعاً يا أنا ...

١٩٦٩

لو لم يصوب طفالكم مسدسه الى عيني !

أيها الشقي ،
يا اسفنجة وحشية الامتصاص في بركة شبابي .
يا قنبلة في أحشائي أحنو عليها حنان حامل على بكرها ..

رغم بزة الجفاء الحديدية التي ارتديناها ، وأحكم كل منا اغلاقها على
ذاته كمقاتلي العصور الوسطى في حلبة التحدي .
رغم خوذة اللامبالاة التي رفعناها على رأسينا رايتي عداء (قبلها كان
رأسانا وسادة حب واحدة) ..
رغم دروع الجفاء التي تنكبناها ... ونخابية زيت الفرح العتيق التي
ثقبناها ...

رغم متاريس الصمت التي شيدناها ...
رغم ثلوج الوداع التي ندفناها طيلة أيام على ذلك الجسر المحرق المضيء
الذي مددناه طيلة أربعة أشهر بين عالمك وعالمي .
رغم أظافر التحدي الشرس التي شرعها كل منا في وجه صاحبه ،
حتى استحات أصابع كفك من خمس شموع الى خمسة خناجر ... وأصابعي
من خمسة أوتار الى خمسة سياط .

رغم جثث العصافير التي استبدلنا بها نجوم ليلينا ... والمشائق التي
نصبناها من حبال أجراس كاتدرائية حينا ..

رغم اننا زرعنا طاعون الجليد في لحم أيا منّا ، فصارت قارة
جلدها برك من الوحل والصقيع ، وحشيشها أهداب أطفال أحرقتها التشرّد،
وأشجارها أطراف مقطعة مشوهة لبقايا قبيلة من المرتزقة ...

رغم اننا (درزنا) بالرصاص أصدقاءنا ، رسل السلام ، وأحرقنا
أيديهم وأغصان الزيتون في أيديهم .

رغم انا جعلنا من رحلتهم النبيلة عبر سهوب عنادنا مهمة أشد قسوة
من زحف جنود نابليون في مجاهل روسيا ... ولم يبق أمامهم إلا أن يرقبوا
فأسك ينهال على (انتيجون) ، أنت الذي نرف جدول شبابه طيلة شهور
ليبتدع اسطورتها ..

رغم طبول الرفض التي قرعناها في الدغل (الذي طالما سجدت أشجاره
وغدراناه وزواحفه وكائناته ولوتسه المتفتح على صفحة مياه بركه) لشهقات
امتزاجنا ...

(شهقة نشوة الحديد المحمى لحظة التقائه بالماء) .

رغم رقصة الحرب البدائية التي مارسناها حول محرقة أوراقنا القديمة
وصورنا، وأعشاش بيوض أفراننا التي مزقناها بأقدامنا الراقصة العارية ..
ورغم النبال التي أطلقها كل منا على صوت الآخر في ذاكرته ...

رغم ... ورغم ...

ورغم ما كان ... وما أيقنا انه لا يمكن إلا أن يكون ..

ورغم ان ظننا ان الرصاصة التي تطلق لا تسترد . وانك لا تستطيع
أن تسجل جسداً واحداً مرتين ...

ورغم ... ورغم ...

حينما ارتطم صوان عيني بصوان عينيك .. كان لا مفر للشر من
أن يعود للتفجر ...

حينما انشق قحط الأيام عن وجهك البريء براء المنجل ، الرقيق كحد
شفرة ، وجهك المحفور فوق عظامي كأساطير الجذات ..
عادت دماء أيامي النازقة الى شريانك : موطني ...
وعدنا نتابع أبجارنا العجيب ، الى شواطئ الجمر والزجاج المكسر ..
وتسألني بينما ذراعاك تسمرانني الى تل صدرك ، منجم الأفيون
والحشيش .

— لماذا ؟؟ لماذا ذهبت عني ؟
كيف استطعت أن تقولي وداعاً ؟... هل تخميني ؟.. وهل .. وهل ..
وكيف .. ولماذا ..

وأصمت . من كان يصدق اننا سنعود من جديد طفلين بريئين يتابعان
سيرة العبث الى حقول صيد اللهثات والجنون والنشوة .. من كان يصدق
انسي في ثوان استطعت أن انسى اننا افترقنا لأيام .. لو ، لو ، لو ،
لم يسمرنني سؤالك .

اذن علي ان أظلم داخل خرم الابرة ريثما أفسر ، وإلا فلا عودة
الى ملكوت حيننا ...

اذن ، علي أن أقول شيئاً منطقياً (كأن في كل ما كان يدور منذ
البداية ما يمت الى كلمة م ن ط ق بصلة !)
حسناً ، سأقول لك بعضاً من شيء عن كل شيء .

ولأن رأسي مدينة تحملها كاهنة مندورة للصمت ، بيوتها وشوارعها
مربعات كلمات متقاطعة ، وأبجديتها طلاس مجهولة كتنقوش لغة محفورة
على بقايا جزيرة ابتلعها المحيط قبل أن يتلع الاتلتيد بعصور ...

لذا ، بهدوء ، أخلع رأسي ، وأودعه أحد رفوف مكتبي بين الكتب
الصفراء والقرمزية وبدأ الفلاسفة .

والآن ، وقد خلعت رأسي ،
أقف في الريح والحواء غريبة ومتحدية كشوكة منفردة ، بلا بارحة
ولا غد ، حزينه كدموع دمية فزاع طيور من القش ...
نقية كامرأة في كنيسة لم تجد ما تضع في صندوق النذور سوى اسم
حبيبها .

قوية وصلبة كجدار قلعة لما تنس أصداء سهيل الخيول وقرع السيوف.
إذن لا أملك إلا ان اكون صادقة .
وعلى جسد الورق ، أرمي اليك بكلماتي الشاردة الضائعة ، كآثار
خطوات امرأة تترنح في سهل ثلجي وقد غاص في ظهرها خنجر .

نعم . قلت وداعاً فجأة . نعم . هربت من سيارتك «صدقة الدفء
والموسيقى والحنان » فجأة ...
فعلى المقعد الخلفي لسيارتك يا حبيبي ، كان هنالك مسدس منسي ..
مسدس لعبة اطفال ... كان طبعاً مسدس طفلك ..
لعبته التي نسيها على المقعد الخلفي .
ثم ، ثم لا ادري ..
لم تعد لمسائك تزرع الجمر في مسامي ... لم أعد أسمع حديثك الذي
يخدرني ويسرقني ...
تسمرت نظراتي على المسدس ... للمرة الأولى وعيت معنى ان
تكون أباً .

شاهدته ، طفلك الذي لم أر طيلة عمري ... أحسسته ينظر إلي بعتب
وتقريع لا تقدر عليه سوى عيون الأطفال والمحتضرين .

وانطلقت رصاصة من مسدسه الى عيني ...
رصاصة لم يسمعها احد . لم يدر بها احد ...
رصاصة محرقة لها طعم الإحساس بالإثم ...
لو كنت تدري معنى مسدس طفل منسي في سيارة ... لما سألت :
لماذا هربت ...

لا شيء أبداً كان يستطيع ان يتزعك من أثياب حبي .
لا شيء أبداً كان يستطيع ان يملي علي كلمة وداعاً، أسكبها في اذنك
وأهرب مشتعلة بإثمى ...
لا شيء، لو لم يطلق طفلك رصاصة على عيني دون ان يدري ...

لا تقل انك لم تعرف لماذا هربت ، انت يا حبيبي (الرادار) الذي
لم يلتقط أحد قط كهارب صمتي كما تفعل أنت .

لا تسلي اين كنت خلال فراقنا . حينما تغيب ، أكف عن ان أكون.

أيها العابر في عمري كغمامة على صدر سنبله .
مناجل العالم كله لن تريحني من عبور ظلك ...
وبيادر الدنيا كلها لن تسكب الألفة فيّ ، وسأظل سنبله كل حبة
فيها دمة .

يا حبيبي ، اية مجزرة ان نعلن الصلح ...
يا حبيبي ، لما ظننا ان ارادتنا هي « القدر » افترقنا ..
يبدو ان الحب ، (ذلك الغجري الممزق الأوتار الذي ينشد اغانيه
لدروب الليل منذ عصور) الحب ، هو إله القدر وسيده ...

ويوم افترقنا ...
لم يكن هناك منتصر او مهزوم .. كلانا كان مهزوماً لأن الحكاية
انتهت ...
واليوم ... كلانا مهزوم لأن الحكاية بدأت تستعصي على الانتهاء ...
يا حبيبي .. أية مجزرة ان نعلن الصلح ! .. وأية مجزرة ان لا نعود..
وأية مجزرة اننا قد عدنا ، رغم رصاص طفلك الذي سيظل ابداً يمزق
عيني .

١٩٦٩

لمسا مير صليبي ... اغني الليلة

يا غربي الذي لا مفر من ان يعود غريباً .
منذ البدء ، منذ خلق الحزن والسوط ، منذ خلق الصقيع والسعال
والظلمة ، والدموع على أحجار الأزقة الباردة ، وصمت الأبواب العالية
الموصدة ، وأنا أرتدي حقبة سفر ، وأعدو من مدينة الى اخرى ،
اركض ملايين الأميال في شوارع مسكونة بالخوف والرجال والعنف ،
بحثاً عن يد دافئة كتهليلة أم ، كبيرة وقوية كسقف بيت ، راسخة كمرساة
سفينة عادت للتو من رحيل دام قروناً .

أيد وأيد امتدت إلي ، أنا الغجرية بلا مرفأ ...
عشرات من الأيدي أكثرها كأيدي النشالين والحواة كنت أحسها وهي
تمتد لتحتويني باردة ولزجة وزنخة كجسد ضفدع في مستنقع .
بحدس قطرة برية تشم السم في الوليمة المغربية ، كنت أعدو من جديد
هاربة الى هربي ..

لماذا أيديهم جميعاً كانت كقارة من الملح والكلس حينما تحتويني ؟

وكانت يدك ... (لماذا أنت بالذات) .. وكانت أيام ...

أيام وأيام ويدك قارة خصب وأعياد .. يدك وطني ..
خطوط راحة كفك صارت خطوط خارطة عالمي ... أظافرك واحتي.
خارج حدود أصابعك ينتهي العالم ، وإذا انزلت عنها لا شيء سوى
سقوط. أبدي مستمر في فراغ العدم حيث لا قاع ..
شرايين يدك انهاري .

عبوسك صواعقي .
صمتك قحطي . شروذك مجاعي . كلماتك بوصلي في بحار ضياعي ...

أيام وأيام ، وأنا أكرهك بقدر ما أجوعك . (لأنك ستظنه جوعاً
طينياً كأي جوع آخر ، لا جوع كوكب مرمي منذ الأزل في وحشة
الفلك) .

أيام وأيام ، وأنا أرفضك بقدر ما اشتاقتك .
أخافك ، بقدر اطمئناني اليك .

استسلم لقدري في يدك بقدر ما احتج عليه . وأظل أنوس عنك اليك ،
محكومة بك كرقاص ساعة أثرية مدقوق الى اطارها ، يركض أجيالاً
دون أن يغادره ..

ولأن ذلك لا يصدق ، كان من الطبيعي الا تصدقه !
ولأن الكلمات الصادقة تتحرر قبل أن تتسول إقرار أي إنسان بتصديقها .
— حتى إقرارك أنت ، بل بالذات أنت — .
لذا ،

معك ، كانت تتكدس في حلقي بجث الحروف المتحررة ، دون أن
أملك لعذابي شيئاً ...

وتسدمي رثي حشرجات أبجديتي المؤودة بداخلهما دون أن استعرض
نزيفي لك فيالتق من (حرس الشرف) في كرنفال الحب ..

لقد احببتك . أية فجیعة !! ... فلأني أحببتك لم أقلها قط لك ..
كنت أرمي بالعبرة للظلمة والريح ، كما يرمى الأطفال غیر الشرعیین
الى أبواب الأديرة ، سرّاً ، وبخزن كثير .

ولكنك ألقت أن ترى الحب تهالكاً . والهوى رقصة توصل في بركة وحل .
والشوق استجداء .. (وتلك لغة أجهلها يا حبيبي) ...
ألقت أن ترى الأقزام يسقطون لأجلك .. وكالذباب المحتضر يغرسون
كلاباتهم في راحة يدك ...

لذا .. لما خلعت حقيبة سفري وارتديت انوثتي ، لم تلاحظ ان شيئاً
تبدل .. ولما انكسر الاناء الصيني النادر ، خيل اليك انه كان مجرد كأس
أخرى فرغت ... (كانت لحطامها صورة فم يتسم) .. ولكن يبدو
أنهم نسوا أن يحدثوك عن فم المسيح المبتسم لمسامير صليبه .

لمسامير صليبي أغني الليلة .. ما دامت اليدان اللتان غرستها في لحم
يدي هما يداك ...

(ترى هل تذكرت يدك وهي تغرس المسامير في يدي تاريخها معاً ؟
كيف كانت تحتضنها أياماً وأياماً بحنان ودهشة طفل يقبض على سمكة
ملونة للمرة الأولى ؟) .

لحشب صليبي استسلم .

ما دمت بذراعيك قطعت سنديانة حينا ، وبفأس الجحود حطبت
أخشابها في غاب الفراق .

لظهرك الذي يكاد يغيبه المنعطف الى الأبد ابتسم ،

أباركه بحب كصلاة الأطفال ،

لا يعرف حقداً ولا عتياً ولا ندماً ولا مساومة ..

أباركه بحب كدموع الأطفال ، تقي كقيمة تمطر في أحشاء غيمة
دون أن تمس تراب هذا العالم المزروع سكاكين وأنياباً .
لظهرك الذي يكاد يغيبه المنعطف أحاول أن أصرخ : شكراً ..
شكراً لأنني عرفتكَ ...
شكراً لكل ما كان ...

يا غريب
وأنت تنفض الغبار عن أرقام الهواتف والعناوين العتيقة في مفكرتك ،
وأنت تمضي عني بحماس وفرح صبي جميل ذاهب لبتابع لعبه في الغابة
وييده شبكة صيد القراشات .. أحاول أن أصرخ لمرة وبأعلى صوتي
« لقد أحبيتك » وأود لو أشيعك بها قبل أن يغيبك المنعطف تماماً ،
ولكنك يا حبيبي غرست مسماراً حتى في حنجرتي

١٩٦٩

.. وا غمدت نفسي في خنجرك

أيها الشقي

كنت أظنك لن تنسى ما قلته لك تلك الليلة الحزينة ،

هل تذكر ؟

بدأت ، ليلة ككل ليلة لا تنسى ، عرفتُها معك .. سيارتك صدّقة
دفع وضحك ، يدك القوية تحيط بنخصري قيلاً من ملايين السلاسل يشدني
إليك ، ويظل يدقني إلى فلك عمرك حتى بعد أن تنسحب يدك .. أضواء
السيارة تمزق أحشاء العتمة . الأسفلت يركض بجنون تحت العجلات
وفجأة ...

رأيناها معاً ،

قطة مرمية على الأسفلت صدمتها سيارة ما .

لم تكن ميتة . لم تكن حية . كانت تنتفض وتتقلب على الأسفلت في
مشهد عذاب لا ينسى ... كانت مثل طفل قطعوا للتو ساقه وأطلقوا عليه
رتيلاء سوداء مرعبة تطارده ...

شهقت أنا ، وفي صدرك أخفيت وجهي ...



غسلت مرارتي بخفافك إذ قلت لي : تمنيت لو انك لم تشاهدها ...
ظللتنا صامتين . ظلت صورتها وهي تتلوى في حشيرة عذائها تملأ عينينا .
تسد الأفق . مواؤها صرنا نسمعه تردده الريح والمطر والأشجار والحصى
وشموع المزارات ... مواؤها صار في حنجرتي ...

بعد دقائق ، بعد أن استعدت بعض أنفاسي قلت لك : انه مجرم ...
ليس لأنه صدمها ، ولكن لأنه لم يتوقف ليتأكد انها ماتت ... لأنه لم
يقتلها باتقان ...

يبدو انك نسيت ذلك كله البارحة .. حين قررت أن تبتعد عني ،
واليوم حين عدت إلي من جديد .

البارحة ، طوال النهار ، بيد ثابتة سددت خنجرك الى ذلك القاطن
في صدري - حبنا - وقررت أن تكون سيد علاقتنا - كما كنت أبدأ -
وأن تحمل بنفسك مسؤولية إطلاق (رصاصة الرحمة) والفراق ، على ما
في ذلك من تعذيب لي ولك ، ما دام حبنا محرماً ، وفراشنا مكهرباً
بالخوف والحذر ، ووسادتنا يقطنها شريط يدور باستمرار يحمل أصواتاً
مؤنية متوعدة . بيد ثابتة قررت ، ألا تدبر قرص الهاتف وتسأل عني .
بيد ثابتة قررت أن تغمد الخنجر . فهمت . شرعت صدري ، وأغمدت
نفسي بنفسني في خنجرك .

في التاسعة والرابع مساء كنت قد فهمت . بالضبط ، قبل ذلك بساعات ،
خدمت ما ستندم عليه . بتلك الحاسة الغامضة العجيبة ، حاسة لا تملكها
إلا المرأة العاشقة والأحصنة الوحشية (التي تعرف بقدوم الزلزال قبل أن
تعلن ذلك إبرة أدق آلة في أي مرصد)

عرفت انك قررت أن تطلق رصاصة الرحمة .
وانطويت على الجرح . ومع الأصدقاء وزوجاتهم مضيت الى حيث

زعيق الموسيقى والأضواء الشاحبة تخفي نرف الطعنة ... كنت أتلوى الماء
وعذاباً واحتجاجاً ونخال الأصدقاء انى أبداع رقصاً .. كنت على (البست)
كما كانت تلك القطة على الاسفلت ..

كنت لا أملك إلا أن أموت بكرياء ، كما أحبيتك وكما عاهدتك .
ولذا لم أحاول مد جسر الى عالمك أحمله اليك رسل عذابى ولوعتى. لم
أمسك بسماعة هاتف أنوح عبرها كآبة قطة شارع تافهة .. لم أطارذ عجلات
سيارتك لأطالبك بثمرن كفن !

وعاد صوتك اليوم الى عالمى . عاد عاتباً ، مؤنباً .
(يا إلهى لديك مقدرة مذهلة على تسويرى بشكوكك ووضعى فى قفص
الاتهام .. مقدرة تفوق ما تسميه أنت بموهبتي على الانتقال من قفص
الاتهام الى منصة المدعى العام) .

يبدو انك لم تستطع أن تصدق أصالة نرفى .. لذا عدت معاتباً ...
تسأل جسدى المتحجر أمامك ، عن حق حبنا على من الألم ..
لو تدري كم تألمت ...

ولكن لأنك ألفت مواء القطط وتهالكها ، ظننت صمى لامبالاة ،
وفهمت امثالى لرغبتك على انه استهتار عابث ، ولن تصدق انى عشت
عذاب الاحتضار إلا إذا سمعت موائى يمزق عجلات سيارتك .

أقول لك ، أياها الرجل الذى يوازي فراقه نروح دمي عن شرايىنى..
أقول لك أياها الطائر الغرب الذى منذ رف جناحاه فى زنزاة عمري استحالت
الزنزاة كوكباً نائياً أقطنه وحيدة إلا منه .. هو وحده ..

أياها الغالى ، اطمئنك ، الى ان عذابى فى زنزاة ذاتى منذ غاب
جناحاك عني ليلة البارحة ، كان عذاباً لم تشهد له مثيلاً أحجار جدران

معتقلات تعذيب العالم ، ولا احتضار القطط على الاسفلت في الليالي الممطرة
ولكن ... أأست أنت الذي علمني ان الأشجار تموت واقفة ؟

أقول لك ، ما جدوى أن تحرق شجرة الطيب بأكملها لتؤكد من
انها ليست حطباً عادياً مزيفاً .. ماذا يبقى لك منها سوى يقينك بأنها
كانت حقاً أصيلة ، لا مزيفة ؟ لا تغامر بإشعال النار فيها اذا كنت
ستلعب دور الاطفائي في اليوم التالي .

أقول لك : اذا كنت ستعود ، لا تذهب ..
أقول لك ،

في المرة القادمة ، حينما تصوب طعنتك ، فلتكن يدك ثابتة ، وأغمد
خنجرك لمرة واحدة .. واذا التفت ولم تجدني أتلوى على الاسفلت وأطارد
عجلات سيارتك بنواحي ، واذا رأيتني أتنقع بالضحك وصخب الموسيقى
هرباً من المزيد من إيلامك ، ومن فضول الأصدقاء والشامتين ، فلا تقل
« أفلتت القطة من العجلات » ، لا تقل « كانت لشارع آخر ورجل
آخر » ..

لا .. في المرة القادمة لا تعد ، فعودتك بشكوكك تعذبني أكثر من
رصاصتك .. عودتك تطيل أمد عذابي لأنها تمدني ببعض الحياة .. تحيلني
الى تلك القطة التي شاهدناها معاً .. تحتضر طويلاً !

وثق انك لحظة تغيب عن عمري ، لحظة تلمم ابتسامتك وصوتك
وضحكائك وأشعارك ، ستطبق سعادتي أجفانها الى الأبد .. وسيلفظ حماسي
أنفاسه .. فأنا لا أحبك ، بل اني مسكونة بك ، وإلا لما وقفت كل
مساء في البرد والمطر منتظرة نصيبي منك باستسلام مهزوم أيام الحرب
يقف في صف الاعاشة منتظراً نصيبه متقبلاً ما يُرمى اليه بصمت .

حتى بعد أن تفرق ..
سأظل لا أملك إلا أن أحبك ، وأنت ، ستكتشف ذلك فيما بعد
بنفسك - لأنك ستظل تحبني ..

١٩٦٩

اتحدّاك بحبي ..

حبيبي

ترعيني شهيتك لادائي ، تطل من عينيك بقسوة قضاة محاكم التفتيش
وبرود غدائرهم الاصطناعية .

ترعيني شكوكك المتأهبة أبداً للانطلاق بسنابكها فوق يؤبؤي عيني
اللتين ترمقانك أبداً بحب عصفور طار ألف عام وسط الريح والعواصف
حتى وجد وطنه في صدرك ...

ترعيني كلماتك حينما تتهم حبي بما ليس فيه - وأنت أدرى مني
بذلك - وتطلق علي كلماتك المتهمة سرياً من النحل الشرس اللدغ بعشوائية
شكوكك ، بقسوة اتهاماتك ، تحيل حنجرتي الى قارة من الملح والصبار...
رغم ذلك كله بملء في ، أود أن أقول لك وأن أقول لهم جميعاً :
أحب هذا الرجل الأصيل النبيل كحد سيف الأساطير ... أحبه بلا
تحفظات .. أزحف اليه عبر قارة الغيلان والحزن ، وأدمر الجسور كلها
ورائي ... وأحرق الغابات كلها خلفي ...

هذا الرجل سجاني وطفلي ... أحبه ، وسأظل أنحداه بحبي .

يا حزننا الآتي...

كوثني يتلو تعويذته وصلاته ، كنت أردد « أيتها السعادة ، يا حزننا الآتي » ، وكنا مختبئين في ركننا « بالديسكوتيك » ، وكنت مختبئة في أعشاب صدرك غابتي وكونخي وكنت مختبئاً في ريش صمتك .. وكانت أناملك العجيبة تجوس مجاهلي . تزرع العنفوان تحت جلدي . تسكب الحذر والطمأنينة في مسامي .. وكانت نظراتي ترتد عنك أيدي متعبة تدق باباً صلباً مغلقاً منذ زمن بعيد .. وكانت عيناك نافذتين تضيء خلفها نيران معابد غامضة الأسرار ، تلوح خلف أهدابها أشباح حكايا عتيقة مهماتها لا تنسى وانتحابها لا يهدأ .

ثم تحتويني بنظراتك . ترحل الأشباح عن عينيك وأرى في سوادهما التماع زوارق صيادين أشداء نصف عراة في ليلة صافية ، وأحس بدفع أغاني أطفال يلعبون بالثلوج ، وبأسي رجل الثلج الذي يصنعونه لأنه لا يعرف كيف يقول : أحب .

وأقول لك : أنا ثعلب صغير طارده الصيادون طويلاً ، ووجد في شبكتك الدفء الذي لم يعرفه في ليالي الرعب والوحشة والصخب التي طالما عاشها ، ولم ينس رائحة الحذر والرقب والتزف بعد .. ونمت في شبكتك بأمن وطمأنينة طفلة لم تنم منذ ولادتها .. تشدني

اليك هامساً : حبيبي ، واصلي بجزع : أيتها السعادة التي نعيش الآن ،
يا حزننا الآتي ..

ويبحر بنا الليل في عوالم صفاء سعيدة ، فأغمر عيني خوفاً من
الطوفان السذي لا مفر من أن يجيء .. واتساءل : لماذا لم تجهز علي
بجسدك ؟ لماذا لم تغمد جسدك في انساني وتنتهي الحكاية ؟ « تنتهي ؟
يا إلهي من يدري ؟ قد تبدأ عوالم جديدة .. ارتعد وأنا أتخيل كيف
يمكن أن ارتعد » .. ولكن ، لماذا وقد استسلمت لشبكتك ، بل وأحببتها
وتمسكت بها ، لففتها حولي ، واختبأتني في عالمك ووجودك بحنو الشريان
على النبض ، وحملتني في دنياك حتى كادت تضع حدودي في حدودك...
حتى لم أعد أعرف كيف أخرج منك ، كما لا تعرف السلحفاة كيف
تهجر صدفتها ؟.. لماذا كنت رائعاً هكذا ، حتى صارت لحظات غيابك
مسيرة ارغامية في حقل ألغام ، ولحظات صمتك وقوفاً طويلاً لقرية منكسة
الرؤوس أمام أبراس دير ترفض أن تفرع ، وغضبك مقصلي وفراقنا
جلادي ... وذراعي مجدافان يتوقان للانحار أبداً الى موانئك ، وفرجي
بك يرتجف في كياني كأيدي الأطفال التي تنفق حول الفراش الملمون
محاولة عبثاً الامساك به ؟... تذكر وأنت ترفعي معك الى قمة السعادة ،
كم سيكون السقوط مؤلماً .. تذكر ان سعادتنا اليوم هي حزننا الآتي ..

١٩٦٨

حبنا ... شطرنج بالمراسلة

« قولي شيئاً . هل تحبيني ؟ أكتبني . انظري . انتحري . قولي أي شيء بطريقة ما ..
أيها الشقي ..

الليلة ، أخلع رأسي بهدوء ، وأودعه أحد الأدراج ، ثم أجلس لأحدثك ما دمت قد رحلت .. لأقول لك أشياء كثيرة ما دمت لن تسمع .
وأهذي ...

منذ زمن بعيد وقلبي يختبئ منك داخل جسدي، وجسدي يختبئ منك داخل رأسي !... رأسي ، درع الطفلة .
وحيثما أكتب للناس ، أكتب بأصابع عقلي ، لأن كل ما تبقى مني مسكون بك ... « بدأت أقول ، أليس كذلك » ..
استيقظت صبيحة رحيلك ، وبدأت أعدد أحداث يومي المرتقب ...
كل ما يمكن أن أفعله بدونك ..
بدا كل شيء ميتاً موحشاً ، لذا أغمضت عيني بشدة ، بقسوة، وتمنيت أن أنام حتى صباح اليوم التالي ...

أن أفقدك ؟ أية فجيرة ..

إذن رحلت .

وبهدوء ، خلعت رأسي ، ومضيت الى المطار أجرب الانتظار ...
خلف الزجاج الذي يشطر قاعة المنتظرين والقادمين وقفت أنتظر ...
أتأمل وجوه العائدين ...

رجال .. رجال .. وجوه لها عيون كبيرة أو عيون صغيرة ، أو
بلا عيون ... وجوه شقراء أو سوداء أو بلا لون ... وجوه ووجوه ...
لماذا أنت بالذات ؟ ... « لا لم أبك » .. وفي هذه اللحظة تبكي
ألف امرأة أخرى ربما للسبب نفسه .. لماذا أنا بالذات ؟
أهرب عنك بقدر ما أتوق لو أركض اليك ... وأظل أنوس عنك
الك .. أتمنى أن أنزفك من رثتي ...

أفقدك ..

أيها الرجل المتعب كذئب بري يطارده عشرات الصيادين ، أفقد رقتك ،
ياحد السكين ، أتقلب فوقها ، وصوتك الهادر تحت جلدي ، صوتك ،
كم أتمنى لو أطلق النار عليه ..

كلما تك ، حقل الغام ، وحينما أغامر وأقرأك ، يرتني بجسدي فوق
السطور الأخيرة ممزقاً يأكله الحريق ..

أن أحبك ؟ أية فجيرة ..

لا . لست غاضبة ..

أحب أن يسيء إليّ الذين أحببتهم بصدق . فقد اكتشفت اني كلما
رميت بوثن عن صدري كلما ازداد بحاري حرية وطلاقة ...
مرساي ، متى أمزق سلاسل حصارك ؟

أن تدقني اليك ؟ أية فجيرة .
وتقول : اكتب لي ..
لا أستطيع! ... اكتب عن أي شيء إلا أنت ... أغازل جميع الرجال
إلا أنت ...
معك ..
أموء بصمت ...
أن أحبك ؟ أية فجيرة ..

وماذا بعد ؟...
حبنا ، لعبة الشطرنج بالمراسلة تعبت منها (في لندن ، كانت لي
صديقة عجوز قضت ثلاثين عاماً من عمرها تلعب شطرنجاً بالمراسلة ...
كل ثلاثة أيام كان يأتيها مظروف مختوم من شريكها في اللعبة وداخل
المظروف صورة لوحة شطرنج ، والنقطة التي قام بها ... وتقضي ليها
تفكر بالنقطة القادمة ، بأي حجر تحرك ... وهكذا ... ثلاثون عاماً ...
يوم ويوم ويوم ويوم .. نقلة نقلة نقلة .. وأخيراً جاءني
تبكي بمرارة بمرارة .. سألتها لماذا ؟ ... هل هزمت ؟ قالت لا .
انتصرت . لا أبكي لأنني هزمت أو انتصرت ولكن ، ولكن اللعبة انتهت .
كلانا مهزوم لأن اللعبة انتهت ...
أقول لك ، كلانا مهزوم لأن اللعبة تظل « لعبة » .. لأن حبنا ظل
لعبة شطرنج بالمراسلة ... لأننا ما زلنا قادرين على ألا نخلع رؤوسنا حين
نشاء .

هزمتنا ، لأن جميع أحصنة اللعبة وملوكها ، وكهنتها وملكاتها ،
كلهم كانوا يثرثرون ويتحركون ويعيشون إلا أنا وأنت ، إنها اللعبة ،
ظللنا شريكين قريين بعيدين لا يربطهما إلا اللعبة المشتركة ... شريكين
في لعبة العزلة والغربة ...

حاتم يظل حبنا لعبة شطرنج بالمراسلة ؟
حاتم نتنكب اسطورة الحب تلك كالدرع أمام المرايا ، كي نخفي بها
الألسنة الساخرة الممدودة من قلوبنا ، المخترقة صدورنا كالمثاقب ...
أين يدك .. نسقط معاً الى قاع البئر ، ونستسلم ؟..
حينما نحب الأشياء حقاً لا تفكر بامتلاكها لأننا نحبها ضمن شروطها
هي ... شاركني انتصاري ... لا ينتقص من رغبتني بك انك لست لي..
وحينما أغضبك - كما أفعل الآن - (كم أحب أن أغضبك) يتوهج
وجهك بالثورة ، ويضيء كما لو اشتعلت شمس في داخله ...
واهذي مناكفة : ان احبك ؟ أية فجيرة ...
كنت تعرف معنى ان تدعني أرحل ، أركض ملايين الأميال في شوارع
عينيك المقروشة بإسفلت الصمت واللامبالاة ... هل صدقت اني قط
سأغفر لك ؟

أيها الشقي ..
قبلك ، كنت أبداً منفية خارج الأشياء ... منفية خارج دائرة الحزن
خارج دائرة الفرح ، خارج عالم الانتظار ..
قبلك ، ما الفرق ؟ ما دمت بعد ان عرفتك ، ظلت وحيدة ،
كطير يتخبط في دماثه .
ان احبك ؟ أية فجيرة ..
كدست لك اقنعتي على جانبي الطريق . كيف أضعت وجهي وما
عريته إلا لك ؟

هل تفهم معنى ان يسقط الجابرة ؟..
ألفت ان ترى الأقرام يسقطون لأجلك ..

لذا ..
لما انكسر الاناء النادر الصيني خيل إليك انه كأس أخرى فرغت ...
(رأسي نكتة مهترئة ، فأنا عاقلة) . الآن ، تمّ صحوي .
الآن سقط الآخرون والزمن ، والمكان غير مهم ، بقينا وحدنا .
هادئين ، صامتين ، (لا تسلي إذا كنت أحبك أم لا) نقيين في الفراغ
الرمادي الأزلي ، كتوأمين في رحم واحد .

١٩٦٨

لا شفا .. منك !

أيها الشقي ،
ليست هي لحظات سعادتنا تلك التي باتت تخيفني ، وتكشف لي أي
جسر شيطاني قد امتد بين جزر أعماقي النائية ، ووحشة شطآنك ، واني
بدونك « حفنة من ريش في مهب عاصفة » . لا ...
بل ان لحظات شجارنا هي التي ترعيني . وحدها تؤكد لي أكثر من
أية لحظة سعادة عرفناها ، اننا بدأنا نضيع المحيط الرفيع الذي يفصل بين
التمثيل والواقع .. بين الحلم والحقيقة .. بين عبث اللعبة وجدية الحياة ..
واننا لما ظن كل منا انه يرتدي أقنعتة ، ويتلو أبياته على المسرح ،
ويضم اليه صاحبه ممثلاً على المسرح . أضعنا ذلك المحيط الرفيع في لحظة
ما ، وخرجنا الى الكواليس نتابع المسرحية التي لم نعد متأكدين اذا كانت
منذ البداية مسرحية أم حقيقة ..
هل تذكر ليلة البارحة ؟ للمرة الثانية نتحالف معاً : أنا وأنت ، ضد
ذلك الجسر الذي ظنناه أو ادعى كل منا لنفسه انه أوهى من خيوط القمر
ونسيج الضباب ، للمرة الثانية نتحالف معاً ضده ، فنفعل شجاراً ليقول
أحدنا للآخر وداعاً ، كما لو كان يقذف بين يديه بحزمة من المتفجرات ،
ويتلقف الآخر كلمة «وداعاً» بفرح شيطاني ، ويزرعها تحت ذلك الجسر
حزمة من ديناميت ليفجر بها الجسر «الوهم» ...

ولكن للمرة الثانية ، نطفىء الفتيل بدموع نمت كورود الأساطير حتى
صارت أكبر من حدقاتنا ، ومن صممتنا ، ونبتلع أصابع الانفجار ونتستر
على هوله في أحشائنا، ويتشبث كل منا بصاحبه عاجزاً عن إسدال الستارة
وإعلان « الختام » و « النهاية » ، كما لو ان الحكاية منذ البداية لم تكن
أبدأ مسرحية .. كما لو كانت أكثر حقيقة من حياتنا اليومية ...
لقد بدأنا نحتضن جرثومة ذلك المرض الذي لا شفاء له حتى ولا
بالنسيان ...

١٩٦٨

انوثتي ليست حصان طراودة ..

عزيزي ، صديق حبيبي ...
وتسألني عن صديقك ، وتقول : « لم تحتكره امرأة ، مرة ، كما
احتكرته أنت - تقصدني أنا ، - ولم يخلص لأنثى كما هو مخلص لك
- أي لي أنا ! - » ...
وتسألني بالوكالة عن من ؟ عن الدهشة ؟ عن حبيبي ؟ عن حزننا
الآتي ؟
ما الفرق ؟!

للهشة ، ولحبيبي ، وللريح المزروعة على أعتاب حزننا الآتي ،
ولأنياب العيون الفضولية المشرعة كالعلق لامتصاص أخبارنا ، لكتمان وصادتي
الأيض ، ولثرثرة حروف المطابع ، لهم كلهم ، لكم . لي ، للصمت ،
أصرخ بحقيقة واحدة ... أقولها بملء حنجرة مسامي ، بمحبرة رثي ،
فأنا أرفض أن أزيغ حقيقي ، إذ أنني امرأة أنانية الى حد رفض الكذب ،
وليس في الوجود ما يستحق أن أخون ذاتي لأجله وأكذب ...
ولذا ، أعترف ...

صديقك لم أحتكره (كان يرضي غرور أي انثى ان تبتسم لكلماتك في
تواضع مفتعل ، وبصمت انثوي لثيم مدّع ، تقرر التهمة النصر: احتكاره).

لا ...
لم احتكره ...
لم يحتكرني ...
ليس الاحتكار المتبادل « عملة بورصة علاقتنا » ...
بل هو الرفض المشترك لعلاقات عمادها (الاحتكار) ومسرحها (بورصة)
وأداتها (عملة) ...
لم احتكره .
لم يحتكرني .
ولذا فلقاؤنا يحتكرنا منذ التقينا ... نرجسيتنا المشتركة هي التي احتكرتنا.
جوع كل منا الى ذاته ، الى حقيقته ، هو الذي يلم شملنا كل مساء
الى وليمة فرح واحدة ...
فرح كل منا بقاء ذاته ، التي كستها يوماً بعد يوم طحالب العلاقات
المزيفة وصدأ الزحام الرطب الموحش في أزقة الاحتكار ...
انه معي كل ليلة ، لأنه ليس بحاجة لأن يغادر ذاته ليكون معي ...
وليس مضطراً لارتداء قفازات المجاملة الدثة على نظراته وأنامله
ولحظات صمته وحزنه ، لأنه ليس للحظات صمتي وحزني أقنعة وطقوس
إلا بقدر ما في استسلام الغاب لتفجر ينبوع في قلب صخر ظنّ زمناً
طويلاً انه صخر .. ونسي ان الزلزال لا ينشب عناقه المجنون إلا في
الأرض الصلبة ...
تسألني : أي انثى أنا ؟
أقول لك : انوثتي ليست قط حصان طروادة ، أخفي في جوفه رغبة
تملك انثوية بالاحتكار العدواني ، وأنسلّ به الى دهايز أعصاب صديقك ،
ومنهما الى كهوف أعماقه البكر ...
تسألني : من أي طين جبلت ؟
أقول لك : في وهج لقائنا الانساني ، أكف عن أن أكون طيناً ..

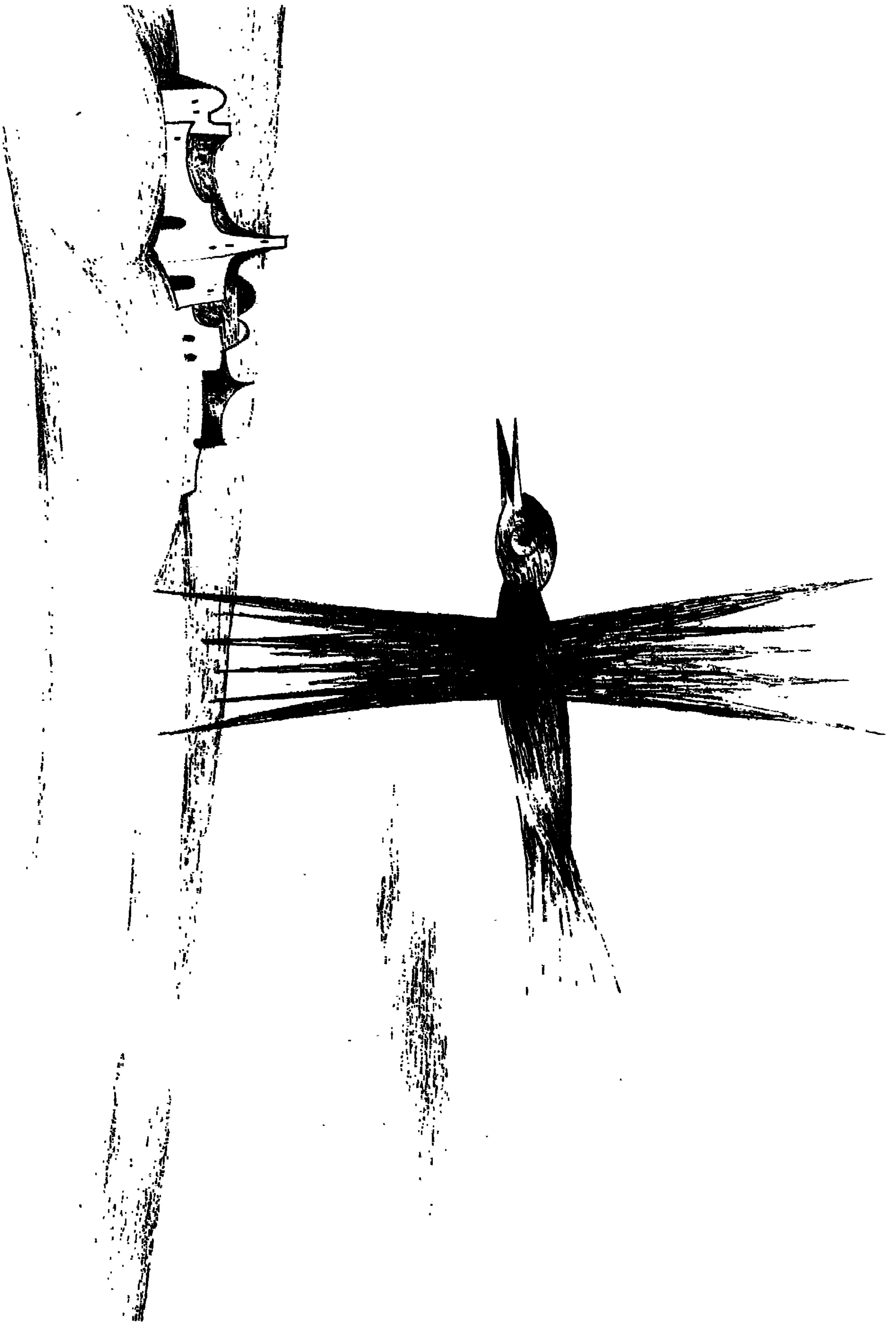
يصير لفرحتنا عراقة فخار منسي في كهف شهدت جدرانها عمادة طفل
بالرعد والمطر والغربة ...

هل يحبني ؟
من قال لك اني أريد انتزاع اعتراف رسمي منه بسيادتي ؟
أنا لا أريد الاعتراف ، لأنني أعيشه .. أنا لا أريد الصيغة ، ما
دمت ثرية بالمضمون ..

يحبني ؟ أحبه ؟
التسميات لا تهم .. الاعترافات لا تجدي .. النفي لا يمسخ أنفاسنا
المتكاثفة على جدار ليالينا .. والتأكيد لا يبدع علاقة ..

يحبني ؟ أحبه ؟
ليتنا لا نفعل . كي لا يكون الحزن - الذي لا مفر من ان يأتي -
نسغاً كاوياً يجري في عروق أيامنا أبداً بدلاً من دمائنا ...

١٩٦٨



كل وجه يعذبني

أيها الغريب ،

لا تسلي غاضباً كل يوم حين نلتقي : أين كنت ؟.. فأنا لا (أكون)
حيناً أكون بعيدة عنك ... حيناً لا توجدني نظرانك كما يعيد الشعاع
خلق الملامح على شريط التصوير الحام ، يغتال بعدك حضوري ...
أستحيل ساعة صدئة ميتة العقارب مرمية في صندوق عتيق بين ثياب
طفل وحيد مات .

أستحيل كوكباً مظلماً منسياً في ركن السماء انتزعته يد شريرة عن
مداره وقذفت به ليتخبط عشوائي الخطى في فراغ العدم الرمادي، تأرب
أصيب برصاصة في عينيه ولما تقتله بعد ...

لا تسلي بمن التقيت ، فكل وجه يطالعي يعذبني لأنه ليس
وجهك ... وجهك الذي أحله فوق صفحة عيني كالخطيئة: يعذبني وأعجز
عن محوه ...

لا تسلي لماذا أصمت حيناً تسألني !

لا أستطيع أن أقول لك في وقت واحد ، في كلمة واحدة :
وحدك عالمي . عيباء حتى ييزغ وجهك . خرساء حتى تناديني :

مشلولة حتى تمسي بيدك المعجزة (كما كان المسيح) .. قارة جليد
حتى يبدأ طوفان حضورك الناري ... لأتقد بعده فرناً أسطوري اللهب .
لا تسلي يا زين الشباب عن إخلاصي ... منذ عرفتك لم أر رجلاً
واحداً آخر على هذا الكوكب . فكيف أخونك ؟
وأنت ، هل ترى أحداً سوانا يا حبيبي ؟

١٩٦٨

لماذا أيتها الشقيّة ؟

لماذا أيتها الشقيّة ،
في شوارع مفروشة بالعتمة ، والثلوج ، والرجال الجياع ، والمجهول ؛
أمضي وحيدة .
في حلقي ، الكلمات العتيقة التي لم تقل تتكاثر كالصبار ، وأجلدها
كأجساد السجناء ..
يقطنني شيطان مدهوش .
وكلما تساءلت « لماذا ؟ » ، تستحيل عيناى نافذتين مفتوحتين على مقبرة
صخرية ..

لماذا ؟

خلفي تركض عشرات الحقائق . تلاحقني من مطار الى آخر ، يتعثر
بعضها ببعض ، ومن وقت الى آخر ، تتناثر الأوراق والكتب وعجلات
سيارات وثياب حريرية سوداء ، تدور على نفسها في دوامة الرياح ،
وتنطلق منها أصوات شاحبة ، من ذلك النوع الذي لا نستطيع ان نتأكد
فما إذا كان ضحكاً أو بكاء .

لماذا ؟
حينما أبكي ،
تسقط دموعي قطرات من الحبر الأسود ، فأزرعها في حقول بيضاء
شاسعة .

وغداً ، حينما يأتي الربيع ، سينبت بين صفحات دفاتري حقل من
الأطفال محروقي الحدود والأهداب ، تحصد العيون بمنجل فضولها ..

لماذا ؟ لا أذكر
وان تذكرت ، فلاني لا أدري
وكل ما أدريه ،
اني طالما استيقظت في أعماق ليل تشردي ، وبحتت عن خنجر ،
أقطع به تلك الخيوط اللامرئية التي تجر بجسد سفيني من ميناء الى آخر ،
تجرح لحمها فوق الصخور بعث مذهل ...
لماذا ؟؟

وأحياناً ،
وأنا أركض في الزحام من حيث لا أدري ، والى حيث لا أدري ...
اجليني أجلس فجأة على الرصيف .. وانفجر ضاحكة حتى البكاء ..
إذ أرى ملايين الخيوط الدقيقة التي تحرك الناس الراكضين والواقفين
والذين يتسولون رغيفاً أو أي شيء .
ويبدو الشارع مسرحاً هائلاً من مسارح الراجوزات المتدلّية .
وأحسد الدمى الطليقة في واجهة مخزن الألعاب ، وأجنحة السنونو
المبحرة بحرية بحثاً عن الربيع ..

ماذا كنت أقول ؟ أجل ..

اليوم حدث شيء رهيب . روى لي أحدهم هذه النكتة .. ولم أضحك
لأنني صدقتها ، لكنني سأله لماذا ؟؟

النكتة ؟ ترى هل تضحكون لها ؟

احتفل رجل بعيد ميلاده المثوي ، وسمع بذلك أعضاء إحدى الجمعيات
الأخلاقية ، فقرروا زيارته . وحينما ذهبوا اليه ، سرهم انه لا يدخن ،
ولم يذق الحمرة طيلة حياته ، وقدموا اليه تصريحاً يعلن فيه انه مدين
بعمره الطويل هذا الى بعده عن الدخان والحمرة والسهر . ومد الرجل
يداً مرتجفة وأمسك بالقلم وانحنى على المنضدة بصعوبة ليقع .. وفجأة ،
سمعوا ضجيجاً في الطابق العلوي حتى كاد السقف يستقر على رؤوسهم
وصوت تحطيم زجاج وأثاث وصراخ أجش شرس . وبدا عليهم الرعب ،
إلا أن الرجل طمأنهم بقوله : لا تخافوا . هذا أبي ، وهو سكران
كعادته !!

تضحكون ؟ حسناً .

(لنفترض انني أيضاً ضحكت قليلاً) .

سأله بعد أن أنهى النكتة : لماذا ؟ لماذا ؟

— لماذا ؟ لماذا ؟

صرخ في وجهي كمن يلقي بقذيفة من يده قبل أن تنفجر : حسناً .
انه القدر .

القدر .

وانفجرت في عيني الكلمة ... رددتها في الشوارع المفروشة بالعتمة
والثلج والرجال الجياع والمجهول ..
ثم بكيت ..
ولأن دموعي قطرات من الحبر الأسود ، زرعتها في حقل أبيض
شاسع ...
وحينما يأتي الربيع ، سينمو داخل أوراق حقل من الأطفال محروقي
الحدود والأهداب .

١٩٦٧

حين سرقوك من بين ذراعيّ ...

أبي ، أيتها المسافر
أن أرثيك يا أحمد ؟
أن أمطر نحيباً وثرثرة ؟
أن أمزق ثيابي ولحمي وأهدابي وسط كورس الندابات ؟
كيف ، وأنا لا أصدق ؟
لا أصدق . أرفض أن أصدق .
وان صدقت ، ان استطعت أن أصدق انك كفت حقاً عن أن
تكون ، أية تفاهة يصبح الرثاء ! أي زيف !..
أن أرثيك يا أحمد ؟
كيف ؟
كيف أمزق الصمت الذي يستولي علي كبيراً ومتحدياً ومترفعاً كتلك
النظرة التي قد ترسم في عيني إله صلب للتو ؟
في مستنقع الرمل المتحرك أغوص .
لا أصدق .
موتك خيانة .
(أعرف انك تسمعي ، وحدك أناطبك ولا أكتب للأجيال . وأحتقر

الحنساء، وموتك - ما يدعونه بموتك - قضية شخصية جداً بيني وبينك ،
فقد كنا طفلين غريبين شبتاً معاً في ميم واحد ، وكان في كل ضربة
توجه الى أحدهما رباط جديد من البوح والتساند يصهرهما .. ولأني لا
أصدق ، أهتمك ، لترد وتنفي ، وينتهي الكابوس النكتة) .
أقول

موتك خيانة .

خيانة لي وحدي لا لهم جميعاً ..

فهم يا سيدي قالوا انك مت لما قال لهم الطيب انك مت . ثم
بكوك ، ثم صدقوا انك في النعش وساروا خلفه ثم حدثوك في سطور
ثم أحصوا ما صنعت من أجلهم وبعد الجمع والطرح صبتوا على وجهك
قالاً من الجبس وصنعوا لك تمثالاً وسوف ينصبون التمثال على باب الجامعة
هناك ويحيونه ويعلمون الأطفال انه كان مواطناً صالحاً وينتهي الحساب
بينك وبينهم ..

أقول ، موتك خيانة لي وحدي

فند (فطمتني) - كان ذلك منذ طفولتي منذ صادقتني - سقط من
حوارنا منطق الأرقام ، وبالتالي انتهى كل احتمال بالاستبدال أو التعويض ،
وصار الشرط الوحيد لعلاقتنا الانسانية : أن تكون .. أن تكون ...
وأنت الآن كفتت عن أن تكون ، أغني أحقاً انك كفتت عن ...
لا أصدق .

لا أصدق انك لن تقرأ هذه الكلمات .

أريد أن تعرف انني لن أغفر لك ان كان ذلك حقاً قد حدث . لن
أغفر للإله فيك .

وحينما سرقوك من بين ذراعي صارخين « مات » ، وأنا أصرخ
« هاتوا طبيباً آخر » ، حينما سرقوك بعيداً ورموا في وجهي بشيء اسمه
شهادة الوفاة، تعلق عمري كله بعينيك ، كي تفتحها، بشفيتك كي تحركها

وتصرخ بذلك الصوت المليء بالرجولة والحنان - الذي أسمع الآن ، حتى
الآن - طبعاً لم أمت ، طبعاً غاده صادقة ...
لكنك خذلتني .. للمرة الأولى خذلتني أمام كورس الندابات والندابين ..
وحتى الآن ، أنتظر أن ألقاك خلف الباب كلما قرع ، لتجيء وتقول
كلمتك معي ، كمعادتك حينما أقف وحيدة أصرخ في وجه الجميع .. حتى
الآن لا أنت خلف الباب لا أحد سوى المعزين يقولون : مات ...
حتى الآن ، لم أصدق .
علمتني أن أقف وحدي ، وسوف أتعلم أن أقف بدونك ريثما تعود ،
أعني ريثما نلتقي بطريقة ما ...
كلمة أخيرة : أشاقلك وأفتقدك .

١٩٦٦

شهوة في سمفونية ليل الغرباء

دمشق يا بعيدة ، يا حكايا التعاويذ والتقاليد ، يا سكيناً مغروسة في أعماقي لا أملك إلا أن أحنو عليها .. دمشق ، يا طفلة الحريف الوديعة..
اني أراك الآن خلال حبال المطر ، الآن وأنا أتسكع في شوارع بيروت المقفرة .. أراك كما كنت أبداً ، وديعة ، كثيبة ، ومحافضة كزوجة ما زالت لا تجرؤ على أن تقبل زوجها .. أراك ، وأرى نفسي فيك ...
اني هناك أمام باب « اللايك » . اني هناك في الغوطة طفلة متمردة على الأطفال تفضل مصادقة أبيها .. اني في طريق الصالحية المؤدي الى مدرستي فتاة تضم كتبها الى صدرها ويتوهج خداهما بالحمرة كلما أطال شاب النظر اليها .. اني هناك في الزحام في ليلة ما من ليالي تموز والألعاب النارية رقصة غجرية في كبد السماء .. اني هناك على قاسيون وأنا ملي تضيء شموعاً فرحاً بقاء يده .. والهوة التي أمامنا لا نعبأ بها ..

ولكني هنا ، هنا في شوارع بيروت .. متشردة يغسلها المطر كأية شجرة عارية من شجيرات جنازة الدرب . وفيك يا دمشق ، خلفت نفسي وطفولتي وزمني وبراءتي .. هنا يهاجمني الواقع بكثافته كلها .. يعريني من أشياءي التي أحببتها .. يعريني إلا من البرد والغربة والذكرى .. وأبنيتك التي حفظتها يا دمشق .. حتى حفرات شوارعك ، حتى اهتراء

أحجار أرصفتك .. آه ماذا أقول ؟ عبثاً أحاول أن أكفن صورتك
بالمشاهد أمامي .. بالمخازن المتخمة بالأشياء الجميلة .. هذا بائع الدمى تغسل
الأمطار واجهة مخزنه ... وأقف وراء الزجاج أتأمل الدمى ... لم ألعب قط
بدمية . اني امرأة لن تعرف الشباب أبداً لأنها لم تعيش طفولتها ..

المقهى دار المشردين .. أجلس نقطة صمت في شبكة الضوضاء حولي..
في فم المذياع أغنية حب زرقاء .. البحر في القمر المعتم يرسم ملله موجات
رتيبة متشابهة .. هداً المطر قليلاً ، والقمر منك ضائع بين أحضان الغيوم..
أنا هنا وحيدة ، شهقة متعبة في سيمفونية ليل المشردين ..
ووجهك يا غريب يلاحقني كلجنة محبة .. عتابه حار كحبه ، كتوسله ،
كقلقه ، كشوقه .. صدرك يا غريب ، يا قارة الضياع ، كم كان حاراً .
كرمال صحراء دمشق في ليالي الصيف .. يوم كان المطر حلماً في خاطر
زرقة السماء .. وأنت ..

لذكرى طعم النحيب في حلقي .. طعم الرماد المبلل بالدمع ..
هل كانت حكايتنا الابتسامة الأخيرة التي تضيء وجهه مختصر ؟

المقهى دار المشردين وأنا ما زلت هنا أجلس نقطة صمت في شبكة
الضوضاء حولي .. وأغنية الحب الزرقاء في فم المذياع تكاد تنتهي كما
تنتهي أغاني الحب جميعاً .. أسمع صوتاً مألوفاً للمذيع يقول « هنا دمشق »..
« هنا دمشق » ، وتصفعي العبارة توقظ ألم السكين في أعماقي .. هنا
دمشق .. حروفها شياطين تحترق بين أهدا بي . وفوق جبيني وفي صدري..
هنا دمشق ... وأهرب من المقهى في مغارة ملح ... نحبي احتكاك الصدا
الرطب بالصدا .. « هنا دمشق » .. وأبكي بشفتي وأناؤه بعيني وأبحث
عن أشد الأرصفة عتمة ..

أين أنت يا دمشق ؟ يا مبدعة عذابتي ، يا أم قلتي وسيدة تشردي ؟

كفك التي لم تحمل لي سوى القلق والنكران والضيق أطبع عليها قبلة
الوفاء .. ما زال المدياع يردد في أذني « هنا دمشق » ..
وأنفجر باكياً بشراة مطر مداري .. أين أنت يا دمشق .. يا وجهه
في دمشق ؟ .. يا شوارعك وخريفك وابتسامته المنحوتة على كل حجر من
أحجارك ورائحته في فصولك الأربع ...
أين أنت يا دمشق ؟ يا كهف السحرة والآلهة الضائعين بين غباء
الايمان وإبداع الإلحاد .. يا غابة الخبز العتيق والراجيل القديمة، يا تمثالي
المطعون في طقوس الزيف ، يا رسمي الممزق في مهرجان الأقنعة ، لماذا
يا غالية ؟ .. بكبرياء أدفن شوقي اليك تحت منابع الضحك الفضي ..
بكبرياء أتحدى رسمه، ذكراه ، أتحدى التصاق به يوم وقفنا أمام الهوة في
قاسيون .. الهوة زهرة وحشية من الأزهار اللاحمة، أشواكها أنياب تنغرس
في شبابي لتمتص منه الحيوية والأمل والتوق الى المجهول .. وأنا أستسلم ..
أتهبط ، أقاوم ، أتعب ، أسقط ، أتماسك .. لا أقول شيئاً .. بكبرياء
أحمل مغارة الملح في في كي لا أبكي حينما يقول المديع « هنا دمشق » ..
كي لا أنهار حينما تلاحقني عيناه ، منارتاي الضائعتان ..

١٩٦٤

انت ومدينتي

وثنان ، لا بل جرحان ... انت ومدينتي
والصمت ، قدر أحزان النور ، صار قدري ..
اسطورتان شاحبتان ، أنت ومدينتي ..
وتعاقب الأيام عبثاً يسكب أمطار النسيان ليزدبك من خاطري ، عبثاً
يهيل الضباب ..
وسوء فهمكما لي لن يوقظ عقارب نغمتي ، لن امنحكما أبداً غير
الحب والصمت ..

اذن انتهت اسطورتنا يا صديقي
وذلك اللقاء الرائع كان آخر لقاء .. وحبنا الذي بدأ في الذروة قد
انتهى في الذروة نفسها .. دون انحدار .. انه ما زال جميلاً ودافئاً كطفل
مات من ثوان فقط ...
النسيان ؟

صديقي ، يا حد الشفرة ، بجنو يمس ، بوحشية يجرح ..

وصوتك .. يا هتاف نارينخ الأحران ، يا عتاباً مريراً كخيبة الآلهة..
اختزنه بحرص البخيل في كهوفي ..
الضعفاء وحدهم يتحدثون عن النسيان ..
وأمي كان اسمها : التحدي ..

اذن انتهت اسطورتنا يا مدينتي
حلت علي لعنة الغجر منذ تلك الليلة الدامعة ، ليلة رحيلي .. ليلة
تحولت ابنتك الى اشارات استفهام سود مشدودة الى قعر الشوارع ،
تساءل بأسي : الى أين ؟ الى أين يا زوجة الرياح ؟؟ وحكاياك ...
وطفولتك .. وجدورك هنا ..

ان نبل الفارس الذي أخذ ييدي لم يحجب عن عيني قسوة الدرب التي
تنتظرنني .. لم يلجم لساني عن التساؤل : ترى أية أصابع شريرة كانت
ترسم لمصري هذا ؟ أية قبضة عابثة ؟

اذن انتهت اسطورتنا يا دمشق ..
حلت علي لعنة الغجر ، وعلي ان أبدأ من جديد ، خيمتي الرياح ،
ووسادتي غيمة ذكريات ، وحيبي الصمت وديني الكبرياء والوفاء ..
وأنت أبدأ ، مبكاي ومصلاي اني توجهت وحيدة إلا من طموحي..
أحمل طموحي وأحمل معه عشرات النبال المسمومة المغروسة في ظهري..
وأسير .. وأسير بجشاً عن أفق عن شمس عن إله عن المفتاح .. خيط
الدم الذي أخلفه ورائي كلمات من جمر تحكي مأساة المرأة الطموح في
بلادي ..

اسطورتان شاحبتان .. أنت ومدينتي ..

احملكما في صدري منارتين نائيتين ..
احملكما في أعماقي جرحين مقدسين ..
في دروب طموحي لسعتي سوط تزيدان وحشية اندفاعي ..
في سجل عمري اسطورتي وفاء وتماسك وكبرياء ..
كنت يا صديقي مدينة أفراحي كما كانت مدينتي ...
تري هل أعود إليكما ؟

١٩٦٤



فوق الثلوج

بصفاء أفعى خلعت جلودها القديم .. بصفاء أعين الآلهة ساعة الخلق ..
بصفاء الثلج الذي كان على ضفتي الطريق .. بصفاء الندى الذي لم يلمس
شفة زهرة بعد .. بصفاء فجيعتي بما كان وبما سيكون .. بصفاء أرحب
بالصفاء ، بالأصدقاء ، بالعيون التي لا غدر فيها بالقلوب التي لا تعرف
اللؤم .

ورغم الصفاء ، رغم فرحة اللقاء بنفوس لا تعرف المخاتلة ، رغم
كل شيء أحس بأعمالي الغريبة ، بذلك المسرح الخاوي حيث الستارة
ممزقة والقيثارات مطفأة العيون .. رغم كل شيء أحس بالرماد ، بالرماد
في حلقي ، بالدمع الذي لم يره رجل قط ..

الثلج الثلج .. أكداس من الثلج .. أجيال من الثلج .. وأنا تحت
الثلج ، هل تجرؤ ؟ هل تستطيع أظافرك أن تنبش قبر الثلج من فوقتي ..
هل تجرؤ على أن تراني كما أنا ، على أن تحبني كما أنا .. امرأة من
رماد تبحث عن بعثها في صدرك ؟ وصدرك ، تراه كما أحلم ، طبقاً
من جمر يترك بصماته فوق الحنايا العارية .
يا أنت .. الثلج الثلج ، هل تجرؤ ؟

أتوق ، أتوق الى أن أرحل بعيداً ساعدك مركبي واهدائك شراعي ،
وأنت يا أنت كالريح ، لا لقاء معك إلا على خد الجبل العاري في ليلة
مظلمة باردة .
وأنا يا أنا ، يا طفلة محروقة الخدين ، يا امرأة من نبيذ المستحيل..
إلى أين ؟؟

الى أين ؟ لا مفر من الرحلة .. لا مفر من أن أهرب بعيداً وأترك
لكم جسدي على المنضدة ضاحك الشفتين مرح اللفتات .. لا مفر من
الرحيل .. نداء لفجيرة ينطلق من هناك ... من ظلمة غابات نائية تتصاعد
من مغاورها أبحرة تتلوى كامرأة تجلد بالسياط ..
لا مفر من أن أرحل .. الى لا مكان .. الى أي مكان .. اني
مشتتة متعبة ضائعة .. كدخان لفافاتك التي ترحل من دفء شفئك الى
المجهول .. الى المجهول ..

١٩٦٤

أعياد فتاة عمياء

لأنني يا صديقي حينما أبحث عنك ، أتحسس الجدران .. لأنني والساعة
الثرثارة في الظلام مصلوبتان تتجادلان .. لأن الصبايا مررن بغرفتي شامتات
مشغفات قبل ذهابهن الى الحفل في دارك القرية .. لأنني كما تتندرون
الآن : صرت عمياء قبل إطلالة العام الجديد .. بأشهر .. بأيام .. لا
أدري منذ متى يا صديقي .. فأنا لم أعد أميز الأيام .. والألحان التي تهب
من شرفاتك تبعثني كشتيت السحاب .. تحملني في ظلماتها الى بعيد ..
بعيد .. أتيه .. أتحسس الليل والصقيع ، وأبحث عن براعم العام الجديد
لا جديد ..

فلأنني هنا منبوذة لا أرى ، فأنا أبصر كل مكان .. أبصر كل
مكان ..

.... برلين ...

وعينا صبي فارغتان من امتلاء الماضي وتوثب المستقبل .. برلين ..
وغريب يضم اليه غريبة والأسلاك الشائكة تفصل بين صدريهما ، تنغرس
في لحميهما .. برلين .. والدبابة تجرح خد شجرة الميلاد الذابلة .. الشجرة
بلا أضواء .. بلا كرات ملونة .. أيد مقطعة وأعين أطفال مشوهة لم

تولد بعد هي وحدها التي تطل من بين الأغصان ..
الحارس يروح ويجيء .. ضربات حذائه تدق الأرض .. تدق مسامير
جديدة في غربة الانسان .. والمسيح .. لم يولد منذ أعوام طويلة ..
العيون في برلين كالندم ممزقة دامية .. كالبارحة ، كالغد ، كأيام
كانت وستكون .. تسائل صقيع الريح : بأي عام جديد يهرفون .. ما
دام لا جديد في الدبابة ، في الأسلاك الشائكة ، في العيون !

اسود الوجه كلؤلؤة تلاحقها اللعنة .. يقف أمام الكنيسة ... جاء الى
أسواق الله يبيع الحب للذين يبيعون الحقد والكراهية ..
البيضاء المدللة تمر به . نخشى أن يتسخ ثوبها بدمعه الأسود .. رجال
الشرطة في أسواق الله كثيرون .. التفاهة البيضاء لن تلوث بالحب الزنجي ..
بالدم الزنجي .. اطرده ..
في ركن الشارع ينزوي الزنجي .. الكنيسة أوصدت معدتها دون الحبز
الأسود ..

الأجراس تثن .. تتلوى ساخرة .. هنا تقوم صلاة الأشراف ، فليبحث
السود بين أحجار الشارع عن إله آخر .. وعام آخر ..

...

موجة اللحن المغناج تهب من دارك باهتة كالرياء .. تنتزعني من
الصمت والظلمة وأنبئ الساعة .. تحملني الى دارك .. الى الغرفة التي حلفت
فيها انك ستحبني أبداً ..

وأراك كما كنت أبداً ... نجم صبح فخور في سماء شاحبة .. بالوهم
أتحسسك وأنت لاه ..

ضديقتي ، أعز صديقة تطير كالفراشة بين ذراعيك .. تحكي لك
كيف أخطأت العمياء النافذة فظنتها باباً وكادت تخطو عبرها .. نكتة ..

تضحكان .. تسألك متى تطفأ الأنوار ليلة العام الجديد .. الظلام .. لو
انها تعرف معنى الظلام ..

الظلام .. وجدران العفوة الرطبة .. ورائحة الاوراس تفوح من الجرح
العتيق .. الرجل يحمله ، يزحف به ، ينبش أرض السجن بحثاً عن عام
جديد .. أي عام .. سجنوه بعدما ثار .. لأن أرضه لم يولد فيها مسيح
منذ أعوام .. لم تعرف عاماً جديداً منذ أعوام .. الخنجر ما زال يحسه
في جرحه ، حاداً ملتهباً ، سيخاً من نار .. صاحب الخنجر يشرب مطلقاً
العينين .. يهذي : وعلى الأرض السلام !

في مدينة ما تخط بي موجات اللحن ..
في كهف ما باهت الأضواء - بيكاسي - الرسوم .. آدم وحواء
يرقصان .. حواء من النوع الذي ينام في أرائك لويس الخامس عشر ..
يحتقر الذباب والرجال .. ويبحث غالباً عن أي رجل !... قيص آدم
المهترىء لا ينجل من غمّل خديها المدلل .. آدم عادي كآلاف الرجال ..
يتحدث عن النوم والعمل والتعب .. يتحدث عن أي شيء ..
فجأة .. يثور اللحن .. يضمها اليه بشدة .. تصفعه - الكونتيسة -
غاضبة .. تكاد تفسد طية ثوبي ونظام شعري أيها الجلف ..
الرجل يجمد . سيدتي . تريدان أن أحبك ، وآدم لا يعرف كيف
يجب بالشوكة والسكين ..

الألحان ما زالت تهب من شرفاتك ، تبعثني كشتيت السحاب ..
تحملي في ظلماتها الى بعيد .. أتبه .. أتحسس عيني الطفل الذي لم يولد
بعد في برلين .. أتحسس عيني اسود الوجه كلؤلؤة اللعنة .. أتحسس

الجرح الدامي المعتق بأحزان الاوراس .. أتحسس فقاعات أفراحكم ..
أتحسس وجهك والليل والصقيع .. وأبحث عن براعم العام الجديد .. آه
لا جديد .. لا تبصرون ..
فلأني هنا منبوذة لا أرى ، فأنا أبصر كل مكان .. - للأسف -
كل مكان ..

١٩٦٣

وتمر الأيام يا غريب

قبل ان نلتقي ، قبل أن تقف أمامي كرمح لا يتثنى ، قبل أن
تحدثني عن أحزان العالقة ، ووحشة الرجل الانسان في حريم ألف ليلة
وليلة حيث النساء يغطين وجهه وذراعيه وكتفيه وصدره .. كالعلق .
قبل أن نلتقي يا غريب ، كانت الأيام شاعراً جوالاً يغمر النوافذ
كلها بالأغاني والنجوم إلا نافذتي .. نافذتي كانت دائماً مغلقة ..
وكان الآخرون ينزلقون على صفحة عمري دون أن يتركوا خدشاً ..
بصمة اصبع .. تماماً كما تنزلق المياه على الجدار الزجاجي لبائع الزهور ..
وكنتُ جداراً زجاجياً حقاً .. وبارداً .. وزهوره لا تصلح لباقة فرح ..
للأكاليل فقط !

وتمر الأيام

وتزرع الأيام في خاطر الزمن حكاية تنبض دفناً وطيشاً كشفة عاشقة ..
وتمر الأيام .. كانت براعم فأنضجناها .. وكانت صقيعاً فألهبناها ..
وكانت ساعات جمود فحركناها .. سكبنا في دقائقها العبير واللون والظل ..
وكان الليل شوارع فضية تمتد تحت عجلات سيارتك .. وكان العمر
حكاية ، ضحكة ، همسة تنسجها شفتاك ..

وكان المجهول نظرة خضراء تغسلني بها فأحسني كغابة بكت طويلاً ..
ندية وبريئة ... وكان صدرك مغرباً كالحقل الذي يرتقي على ترابه جنود
متعبون فرغوا للتو من المعركة .. وكنتُ يا غريب جندياً مهدوداً يحمل
معه المعركة أينما مضى ..

ظلك الكبير يا غريب ، أحقاً ينحسر ؟ ووجهك ، كوتتي التي
أحببت أن أطل منها على العالم ، أحقاً يغيب ؟ وعيناك ، يا نجمتي
الضاليتين في آفاق ممزقة المدارات لن تومضاً بعد تلك الليلة قرب وجهي ،
تتوقان للرقاد بين خصلات شعري .. أمكنا تمرين يا أيام ؟
غرفتي أضحت نافذة كبيرة مفتوحة .. لمن تحمل أغانيك أيها الشاعر
الجوّال ؟

المطر ..
يغسل الشوارع التي تسكننا فيها .. يغسل مقعدينا .. يغسل الشاطئ ..
يغسل وجه البحر .. يغسل الغابات .. يريد أن يمسح بصماتنا .. يريد
أن يزيل آثارنا .. أنفاسنا .. ضحكاتنا .. أحلامنا الصامتة .
عبثاً .. عبثاً يا مطر .. عبثاً تنمحي الحكاية . أضحت كوشم الجمر
في الأعماق .. عبثاً يا مطر ..
تعال .. وابكِ معنا بإخلاص

رحل
والشمس ظلت تطلع ! والقمر ظل يتلأأ في الدرب .. والخريف
قال للذعات ليالي تشرين الباردة انه سيعود ..
وعلى قاسيون أقف .. ودمشق ما زالت حفنة أضواء مرشوشة في عتمة
القاع .. وأنا أمد يدين صغيرتين فاحتوي دمشق بين كفي ، أرفعها من

القاع ، أدرس وجهي فيها بحنان ، أبحث ، في كل شبر لنا حكاية ..
أبحث عنا .. لا شيء .. لا أجد شيئاً ..
أحقاً كنا يا غريب ؟

تمزقي
تمزقي عروق الليل أنت امتصصت الحكاية .. تمزقي .. انزفي رحيق
اللقاء .. انزفي حسرة الوداع . هزي جذور الموج .. جذور قاسيون ..
جذور عمر كان لنا .. أهكذا يمضي ظله الكبير المضيء ؟ أهكذا تجمدن ،
تصمتين ، تتجاهلين .. وأنا لولاه ما عرفتك يا ليال .. يا نشوة ما
كان ، وأحزان ما لن يكون .. ماذا أقول ؟

أحقاً كنا يا غريب ؟
فلتنكر الريح والأمواج والقمر ولذعات الخريف الباردة . فلتلحد
الطبيعة بنا .. بك في أعماقي أتحداهما جميعاً .. برسمك الموشوم في مقلتي ،
بصوتك في حلقي أقول : كنا وسنكون .. غداً تعود يا غريب ، اليوم
غداً ، وتعود تمر الأيام .

١٩٦٣

16



كلمات دافئة

صيدي .. وقتلاي .. وحطام مراكبي .
والدوار ، ومرارة الغثيان ، ورماد الحية .. والمنارات المطفأة ،
وخرائب الموانئ .. وستة أشهر انقضت منذ افترقنا .. وألف حكاية
ملل تنحشر في حلقي حزمة من الأشواك .. وأنت يا أنت ... ووجهك
مشتول وراء الأشياء كلها ، وراء المنارات والأشعة التي يمزقها المطر ،
وجهك أنه خافته رتيبة أظل أسمعها رغم الدوامة التي أخلقها والرياح التي
أهيجها ، والمعارك التي أفتعلها هرباً مما كان .. ووجهك أبداً خلف
الأصوات والألوان ، وسحر أعوامك الأربعين ، ونكهتها وطعمها طعم
الجمر والدموع ...

ستة أشهر ولعنة أعوامك الأربعين تقذفني بلا رحمة من درب الى تيه
الى ضياع في مدن غريبة مجهولة .. ستة أشهر وشبابي يتمزق على اسفلت
شوارعها ويتجرح ويندوب وأنا أسير وأسير وعند كل منعطف أحبس
أنفاسي وأقول سوف يظهر خلف هذا المنعطف ! .. سوف يطل الآن ..
ستة أشهر ، وكل ليلة أقف عند شاطئ البحر وأنظر الى البعيد البعيد
أتمنى أن أرى الضفة الأخرى للبحر حيث أنت ، وأحاول أن أقنع نفسي
بأنك ما زلت قريباً جداً .. هنا .. على الضفة الأخرى فقط !

سته أشهر وأنا لا أجرؤ بعد على التصديق .. أرفض الاقتناع بأن كل شيء قد انتهى والشلل توقف عن التدفق ، والآلهة كفت عن العطاء ...
واني أنا ، بيدي التي ترتعش حباً حينما تخط اسمك ، بيدي هذه وضعت النقطة الأخيرة في سطر حبنا وصممت على أن أبدأ سطوراً جديداً ...

سته أشهر .. صيد .. وقتلى .. وحطام مراكب .. وحروفي التي كانت كأطفالي صارت تنظر إلي بشراسة وحقد ، صارت غريبة عني تأمرت معك علي .. سته أشهر وأنا أهرب منها ، أخافها ، أعرف ان رائحتك تفوح منها ، أنفاسك ، نبضك ما زال يحقق فيها .. عينك تضيئانها .. وكنت أعرف ان خلاصي يكمن فيها ، أنها وحدها - ان اعتقت - قادرة على ان تمنحني حريتي من جديد . وحاولت ان أقسرهما على ان تنضم الى بعضها من جديد لتكون لسواك ، لكنها كانت تهرب من بين يدي وتترلق من بين أصابعي وتقفز عن المنضدة هاربة كفريق من الجنود المهزومين، يتعثرون بالهشيم والحريق وتنطق عيونهم الصغيرة بالآتهام والحق .. وحاولت ان أكتب لك .. أن أقول لك لماذا انسلت من حياتك .. وأعترف لك بأن الشلل أصاب يدي ودموعي وأفكاري .. وسري الغامض يتوسل إلي بعينه نصف المغمضتين وجبينه الشاحب، أن أبقيه في ركنه المعتم .. وحاولت أن أكتب حكايتنا ، لكنني كنت أحس وأنا أكتب بأنني أحبط هذه الحكاية التي كانت تنبض إخلاصاً وصدقاً .. أمسخها .. أشوهها .. أدفن حدة المأساة في قالب اللغة .. وصمت .. ورضيت بالهدوء المسحور الذي نصب نفسه حارساً على أشياءنا ..

حتى وصلت رسالتك الأخيرة ..

شكراً لسمك ، لمعولك وسياطك .. شكراً للطعنة فقد كان فيها بعثي وخلاصي .. وكان فيها اعتناق حروفي من عبوديتك .. للوهلة الأولى لم أصدق .. حتى خطك الذي أعرفه جيداً أنكرته .. ثم بدأ الضباب ينبع من جرحي ليغمر وجهك .. والصدأ ينبت على ضحككتك .. النجمتان في

عينيك انطفأتا .. وأنا أعدو وألم نفسي من شارع مقفر تشردت فيه ومن
صحراء تصفر فيها الرياح ومن ليال ماطرة ومن رحلات خيبة وملل ..
ألم نفسي كي أقف أمامك عملاقة التحدي ، كي أصرخ لا ، كي أجد
دربي ، كي أمضي فيه وحدي صلبة متماسكة ..

وحروفي عادت إلي، تحيط بي تمد لي جسراً الى وديان ليس لرائحتك
فيها أثر ولا لظلك .. تتفجر في صدري كنبح من شرر شره الى التدفق
والعطاء ..

وبعد ، شكراً لسمك وسياطك . لقد كان فيها خلاصي .

١٩٦٣

كنت أتمنى يا زوجها ... ؟

اذن انتهت اسطورتنا أيها القرصان الذي مر ببخاري الآمنة ، فاستباح
أسرار جزري ، وغرس رايته فوق شمسي ، ثم مضى بعد أن مزق أفقي
بسيفه وخلف في كل مكان رائحة المشيم والدمع والرماد .

اذن انتهت أسطورتنا
دمرها زلزال شكوكك ودفنها طوفان صمتي ...
شكوكك وأنت تتساءل أبداً . ترى من هي : من هي ...
كنت أقرأ في عينيك المغمضتين ما تأبى شفتاك البوح به .. وكنت
أرى عشرات الصور المختلفة لي تتعاقب كشريط سينمائي خلف جفنيك ...
تراني تارة نقطة حبر طائشة تتقلب على صفحات الزمن البيض لتترك
سطوراً شرسة جريئة ... وتارة غائبة خطيرة ... وتارة أخرى إشارة
استفهام متحركة .. وامرأة جادة .. وطفلة متعبة . ومغامرة لا مبالية ..
وضائعة بين أذرع الرياح .. كنت لك الدهشة والحيرة والطفولة وعبث
الغواني .. وكان لك صمتي ...
لو كنت تحس وهج الصمت ..
لو كنت تسمع انتحاب الصمت وابتهاال الصمت لتمزقت .. لعرفت
مأساتي ... يا زوجها !!!

اذن انتهت اسطورتنا يا زوجها ... هل يدهشك أن أمضي ؟ لم تكن
لتملك لي إلا فصلاً جديداً في مسرحية ضياعي ... وقد تعبت من الزحف
على الأرصفة في ليالي الصقيع .. لم تكن لتملك لي إلا داراً ليست داري ..
لم تكن لتستطيع أن تمنحني إلا شبه قدر .. شبه عطاء .. وكنت أريد
موقدك ومبكاك ونيرانك كلها .. وكنت أتمنى أن أرى الدخان يتصاعد من
رؤوس أصابعي حينها تسمرنني نظراتك الى شاشة وجودك .. أن يكون
لشفتيك أبداً طعم الجمر .. ان يكون للقائنا علانية الرعد ولامبالاته ..
كنت أتمنى أن تمنحني شيئاً كبيراً ، فرحاً كبيراً ، مأساة كبيرة ،
حناناً كبيراً .. أي شيء يليق بما أردت لك أن تكون لدي ..
وكنت أبكي بصمت لأنك لست لي .. لأنك في عمري لا تملك إلا
أن تكون ظلاً .. لأنك المجهول الذي يرسم قدري دون أن يدري
يا زوجها .. لا .. لا ألومك .. لا شيء سوى انني انتحب بصوت عال ...

ويوم أردت لنفسك أن تكون مجرد ضيف في مقهاى رفضت .. لأنك
شيء آخر .. لأنني أردت لك أن تملك كل شيء أو لا شيء ..

ماذا كنت تتوقع ؟

ماذا سوى أن أهرب لأنبش الوجوه من جديد بحثاً عن رجل عيناه
نجمتان تشعان حناناً أخضر ، كعينيك ؟ ماذا سوى أن أعود الى عشرات
الدمى التي أملكها ، ادنيها وأقصيها ، أحنو عليها ثم أدمرها كأية طفلة
ملول ...

وأنت ... أبداً ... أنت ... قسوتك الحنون .. أبداً شعاع عينيك
الأخضر أعود اليه بين دهر ودهر .. يغسلني ، يحنو على تشردي ، ثم
يرمي بي من جديد الى ضياع أبعد وتشرد أقسى ..

وأنا ، سأظل أبداً جزيرة الرعب التي تجذب أشجع القراصنة، تتحدى
أشجع القراصنة ليلقوا الهزيمة عند اعتبارها ..
أما إذا جئتني ذات ليلة مجدولاً بالتعب والوحدة والغربة ، فستستحيل
جزيرتي الى مرفأ أمان لوقع خطاك .. الى غابة حنان ووداعة ..
أما الآن ، فلا تلمني يا زوجها ...

١٩٦٣

يوميّات فتاة مريضة

الليل وتابوتي وغربتي .

لا شيء سوى خيوط المطر يشدني الى دنيا الأحياء .

وأنا غريبة .. شرارة في صدر الجليد .. جناح فراشة في كهف الرتيلاء .

أنامل المطر تدب على النافذة ، لن أفتح النوافذ للريح !
يا وجهك الصامد كسنديانة فخور ، يا غموض كاهن لن يموت . لماذا
حدثني عن المجهول الرائح الذي يقطن مكاناً ما في مدينتنا يوم سألتك
عن معنى لوجودي ؟

لماذا علمتني منذ طفولتي أن أبحث عنه، وقلت أنه ساعة يتوهج، يضيء
لي دربي ، كل درب وأية درب .

لماذا يا أبي ؟ الآن عدت من رحلتي ، آخر رحلة ، الآن أسجد
في تابوتي لتابوتي ، لصمت اللوحات البله والنور الباهت ، لا يشدني الى
دنياك سوى ديبب أنامل المطر على النافذة ، لن أفتح النافذة ، أبداً لن
أفتح النافذة للريح . الآن عدت من رحلتي ، كل رحلة نحو وجود

الآخرين فشل . «أنا» تلك الحقيقة التي أحس أنها حقيقة ، لن يدرك حقيقة أبعادها وعذابها إلا أنا .

الطبيب يقول ان مرضي الوحيد هو انني أرفض ان أشفى . هل تود ان تسمع الحكاية ؟

مرة قلت له : أيها الرجل .. هل يقطن المجهول الرائع في عينيك ؟
أيها الرجل ؟ ماذا أقول للمطر ، إن رحلت ودق المطر بابي .. ؟
ماذا أقول للشتاء اذا انسكب في مفرق شعري ، وأغرق كفتي وعنقي
برعشات الصقيع ؟

ما أقول إن رحل الدفء في طيات معطفك يا ابن السفوح السمر ؟
مرة قلت له هذا كله .

مرة غرست أعصابي في أعماق عينيه ، انسكبت في فلكها وسبحت
كوكباً حالماً ، نبشت مداراتها ، لم أجِد المجهول الرائع ، لم أجِد أي
مجهول ، كان في عينيه خول مستنقع مهجور إلا من الأفاعي والطين .
وكان مزيفاً كما أتم ثري ، ضاحكاً كطبل . وعرفت ان آدم لم يولد بعد
وحواء لن تسكب طيها ونيرانها لرخاوة الطين .

وأعود ارفع ايامي وذكراه .
مرة ، قسمات وجهه سكبتها في قسمات وجهي .. أذكر ابتساماته
فأبتسم .

يا عينيه . يا نجمتين انطفأتا في وحشة نافذتي . ماذا أقول ؟ . كنت
أبحث عن المجهول الرائع ، عن قوس قزح خفي يلقي بظله على وجودي
الشفاف الأبله ، وحكاياه كانت تسليني ، ولم تكن تقنعني ، والمجهول
الرائع ، أبداً لم ينبت بين أهذاب رجل .

المدينة .. لا نملك فيها شيئاً .
الشوارع لجنون السيارات ، المطاعم ليرقبها الجوع .. الفتيات ليهرمن .
الصدور ليحرقها الدخان والفراغ والسأم .
الآخرون عالم غريب ، نعرف انه ينظر إلينا ولا يرانا ، يخاطبنا دون
أن يسمع حجتنا ، يفرض قوانينه على كبريائنا دون أن يحترم وجودنا ..
رقم .. أنت وأنا مجرد أرقام في سجلات المدينة .. أنت وأنا لا شيء في
نظرها سوى اسم في سجل المواليد ينتقل بعد حين الى سجل الوفيات .
المدينة . لا نملك فيها شيئاً . المجهول الرائع لا يقطن فيها .. تراك
خدعتني يا أبي ؟

الى تابوتي أنسحب ، الغرفة باردة ، أستسلم للفشل ، وأمتد في وجود
الآخرين ظلاً لا يدرك ، لا يمزق ، يكشفون غربي حينما يغرسون أنيابهم
في ظلي ، فيرجع الظل ساخراً يائساً
أشرعتي للمتها عن جزر حقدهم ، طفولتي ، صديقي ، أحلام السندباد
وعلاء الدين ، انطفأت كلها في مقل نسور ضلت طريقها الى قم السراب ..
حماسي تنوس في أراجيح السأم .. أنا بلا لون ولا ظل ولا صدى .

قال متجهماً : مرضها الوحيد هو انها ترفض ان تشفى .
أراه ظلاً شاحباً يعيد ويعيد هذه العبارة ، وأضحك منه ، من إبره
وأدويته وأوامره بألا أغادر الفراش .. لو يعرفون !
كل ليلة ، ألق مع الصمت الى موانئ لم تلوثها ضحكة رجل كاذب .
أمتطي طواحين الهواء ، أصلب توثي على رتابة أضلعها . أداعب
دون كيشوت . أبعر لهفتي في كهوف لم تفجع صخورها بخيبة امرأة ،
أعاقب عقوق الوجود بأنوثتي العاقة ، المجهول الرائع لم أجده حتى في عالم
الوهم .. تراك خدعتني ؟

يا وجهك الصامد كسنديانة فخور ، من أعماق تابوتي أودّ لو أحدثك
عن عقم الأشياء ، عن اللاجدوى التي تنبع من عيون الآخرين ، عن
الغربة السحيقة التي تغلفني بآفاق من العزلة واليأس ، الخيبة الظامئة في كل
كتاب قرأته ، الوميض الدليل الخفي في كل حرف انساني فخور عرفته.
ذلك المجهول الرائع ، النشوة الكبرى الحقيقية ، المعنى الخفي الكامن
وراء عقم الوجود والأشياء . أحقاً انه موجود ؟

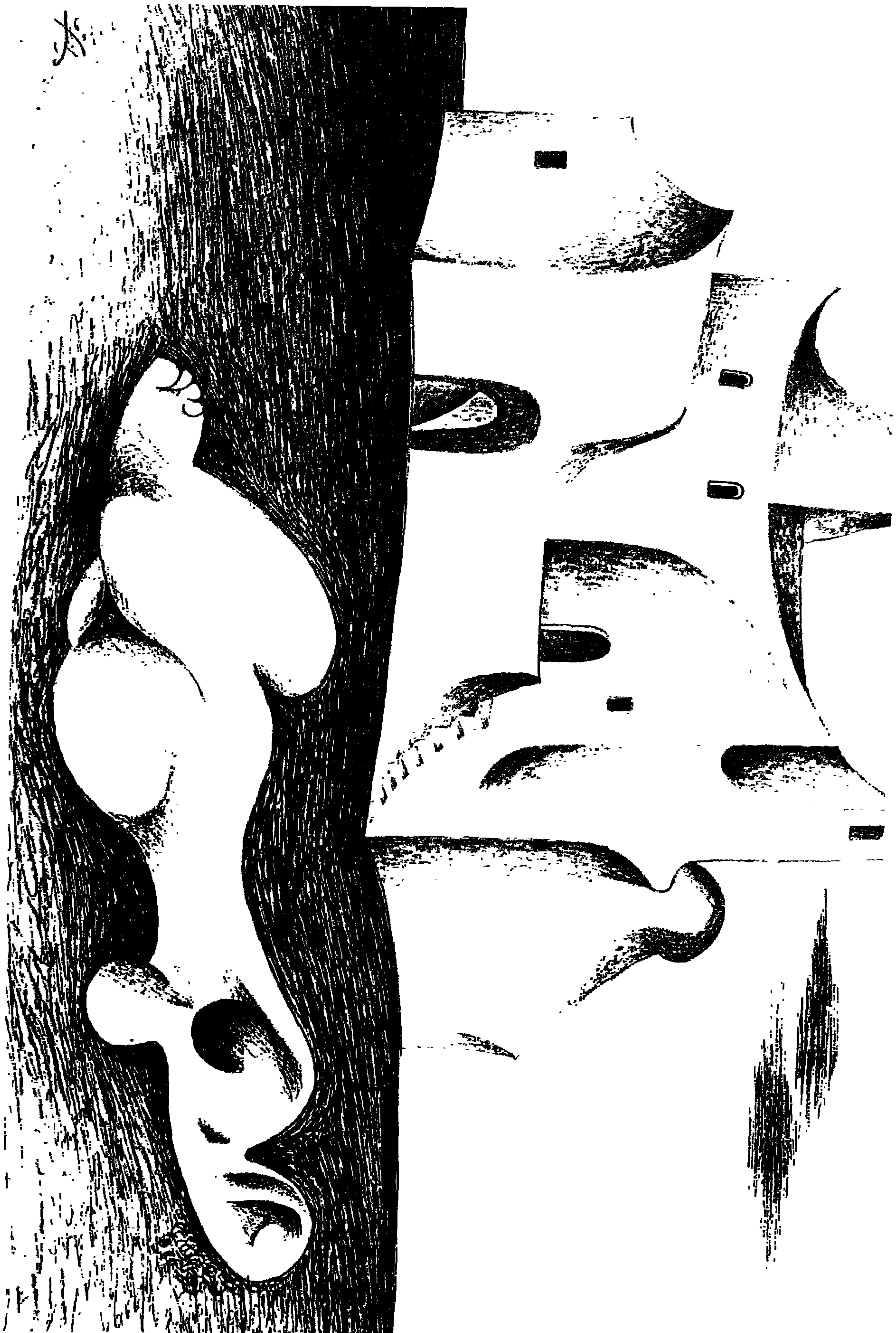
الليل وتابوتي وغربتي ..
لا شيء سوى خيوط المطر يشدني الى دنيا الأحياء . وأنا غريبة ...
شرارة في صدر الجليد .. جناح فراشة في كهف الرتبلاء ..
المطر يقرع النافذة .. ماذا لو فتحتها قبل ان أموت ؟ أفتحتها ..
ينسكب الليل طليقاً مفتوحاً كثوب غانية .. الريح تنشد .. أسمعها
تنشد .. في مجرد قدرتي على السماع نشوة .. المطر يغسل وجهي .. في
مجرد قدرتي على الاستسلام لديب أنامل المطر نشوة .. رائحة التراب المعفر
بالمطر .. رائحة طفل دافئ شبع .. في مجرد قدرتي على الشم نشوة ..
قلاع غربتي تهوي .. أنفتح للوجود كما لم أنفتح من قبل .. أحس
برغبة حارة حقيقية في أن أمتلك هذا العالم الذي يقع تحت حواسي والذي
أخلقه أنا بإدراكي كنهه .. أمنحه بركة الرائحة واللمس والصدى .. أية
حروف خرساء كان يصبح العالم لو لم أقرأه بأناملي وأهدابي ، لو لم
أحتضنه وأسبغ عليه بركة أن يوجد في خاطري ولو لبرهة واحدة .. ماذا
يكون العالم اذا لم أعد تشكيله في لوحة معبرة ناطقة مسموعة هي أنا ..
أنتشي بالحياة لمجرد أنني أحيأ ..

المدينة ما زالت هي هي .. لا نملك منها شيئاً .. والآخرون ما زالت
كل رحلة نحو وجودهم عبثاً .. لكنني لم أعد منبوذة .. روابط بدائية
تشدني الى المطر والعاصفة وأغاني الريح .. المجهول الرائع يقطن في أعماقي

منذ أعوام وأنا أبحث عنه .. هو أنا .. هو إيماني بأني موجودة وبأني
ضرورية كي يرتسم العالم في صفحة بحيرات أعماقي ..
من قال اني مريضة ؟

رائع هو الصباح في يوم شتوي مطير ..
رائع أن أسير .. أن أرى الآخرين في الدرب يحملون في وجوههم
أحزانهم وخيبتهم وأفراحهم الصغيرة .. رائع أن تومض عيناك في دربي
من حين الى حين .. رائع أن أكون جزءاً من هذا العالم الخالد .. رائع
أن أذهب الى عملي ..
من قال اني مرضت ذات يوم ؟

١٩٦٣



وجهك الغامض زهرة الليل الوحشية

منذ ساعات عدت يا صديقي ، ويدك ما زالت تنبض في يدي ،
وقامتلك المشيقة نسمة تهب الى جانبي ، وسواد الليل ما زال يتغلغل في
سواد شعرك حتى ليتصلا ، ونحيل إلي ان حدوده ضاعت في حدودك ،
وانك قطعة من رهبة الظلمة وحنينها الى الرحيل .. وان وجهك الغامض
زهرة الليل الوحشية التي تغرق جذورها في أصقاع الصمت والتأمل ..
لما دلفنا من الزقاق المظلم الى الشارع الرئيسي المزدهم ، أدركت أننا
اقربنا من دارك .. وكان علي أن أقول أشياء كثيرة قبل أن نفرق حقاً ..
ودائماً ... وكانت كلماتي تتعثر بالدموع التي تجمعت في حلقي .. ماذا
أقول ؟ ان علينا أن نفرق ..

وقد قررنا أن نرضخ .. وتقف أمامي .. يواجهني وجهك لغزاً دامعاً
متعباً .. ومن جديد أغوص بحثاً عن كلمة .. أنا القاصة التي
تبكي المدينة لقصصها .. هذه المرة لا أستطيع أن أقول شيئاً ، وعلي أن
أبكي وحيدة من أجل قصتي الوحيدة الحقيقية .. وتهمس : «يا حلوة عندما
نفرق .. اكتبي قصتنا .. هذا رجائي الوحيد » .. وتغيب وراء الباب .
منذ ساعات عدت ويدك ما زالت تنبض في يدي، وهمساتك تحوطني
من كل مكان : عندما نفرق .. اكتبي قصتنا ..

منذ ساعات يا غريب وأنا أكتب وأمزق .. كتبت عنك ، عن نفسي :
كتبت حكايتنا مع الآلهة ، مع الآخرين .. مع أنفسنا ..
كتبت كل شيء وعدت أقرأ ما كتبت ... فغلبني اشمئزاز حقيقي
مفجع .. لو انك ترى يا غريب كيف مسخت الحروف أشياءنا .. لو
انك تحس معي عجزها عن أن تسجل ما قلناه ، وما فهمناه دون أن
نقوله .. لو انك تعرف معنى الحية معنى القرف المدمر الذي غمرني ساعة
رأيت قصتنا كيف استحالت بعد ان كتبتها ..
ورميت بالقلم جانباً ورفعت يدي . خيل إليّ انها بدا مجرم ملطختان
بالدم ..

لقد اغتلت تجربتنا ، لقد خنتها حينما صبيتها في مثل هذا القالب
المسوخ .. يا غريب ... ان الكلمات مها كانت صادقة تحنط التجربة
الحية الصادقة ..

يا شقي، من أعماق الهوة أهتف باسمك ، من أعماق الهوة القائمة بين
اللغة والاحساس أناديك ، فرغبتك الأخيرة في أن أكتب قصتنا لن تكون
إلا إذا خنت حيوية قصتنا وصدقها وعمقها .. ترى هل ترضى بأن أخونك
كي أحقق رغبتك ؟

يا زهرة الليل الضارية علمني ، علمني كيف أدق الحرف بإزميلي
أعمقه ، لأغرق في أعماقه سمو حكاياتنا وأفكارنا .

كيف أحرث الحرف ، أبداع في سماءه غيمة وشمساً لتنبئ أحزاني في
قحطه صفوفاً من الاقحوان والبنفسج اللذين كنت تحب ..

علمني كيف أبعث العبير بين السطور .

كيف أرشق النقاط نجوماً دافئة في سماء ليالينا الدافئة ..

علمني كيف أردم الهوة المفجعة بين الفكرة في ذاتي والفكرة نفسها
حينما تخرج من ذاتي الى قالب اللغة ..

علمني كيف أخلق التطابق بين أحاسيسي وبين هذه الأحاسيس بعد

ان أرسمها في وجود الآخرين بحروفي .. ألا ترى اني الآن ، والآن فقط ،
أدرك أنني أدبية فاشلة ؟ وان كل ما سبق وقلته كان تخطيطاً مزيفاً لتجربة
زائفة .. يا غريب.... ألا تفهم ؟ انني اكتشف ان العالم لم يعرف حتى
اليوم عبقرياً واحداً فعلاً .. يبدو ان العباقرة الحقيقيين ماتوا جميعاً دون
أن يقولوا حرفاً واحداً .. لقد كفوا عن الكتابة في اللحظة التي وجدوا
فيها الحقيقة .. لقد اكتشفوا ان اللغة عاجزة عن استيعاب الحقيقة ..
وكان عليهم أن يشوهوا الحقيقة كي يقولوها .. ففضلوا ان تظل في
عليائها المجهولة على أن تهبط الى عوالم الآخرين مشوهة .. يا غريب ..
هل تفهم ؟ اني اختار لحكايتنا الموت من بعدنا على التشويه .
ماذا أملك سوى الصمت المفجع .. محكوم علينا بالسقوط في هوة
الصمت المرعبة القائمة بين الفكر واللغة .
ومن هنا أناديك لأقول لك ان يدك ما زالت تنبض في يدي وهمساتك
« اكتب قصتنا ... هذا رجائي الأخير » تحوطني من كل مكان .. لكنني
لن اكتب .. لا أستطيع .. لن أخونك .. لن احنط حكايتنا .. هل
تفهم ؟

١٩٦٢

دهاليز .. لا تدمس فيها

حكايـتنا واحـدة أيـها الهارب من شـرقته ، الرامي بـنفسه بـين أحضان
قلوب الآخرين ، ماذا حصـدت سوى الشوك والغثيان ؟ الرحلة ، كل
رحلة نحو وجود الآخرين فشل .. عد الى شـرقـتك . رمـم الفجـوة الـتي
حاولت الهرب منها بلحمك ، السلـحـنـاة ما هـربت قط من صـندوقـها .
السلـحـفـاة عاقلـة ! سـنـديـانة السـعـادة اسـطـورة ، الصـق عـلى كل جـرح ابتـسـامة .
امسح خـد أحـزانك بـتـورد ضـحـكة . ارسم اللـوتـس والنـيلـوفر عـلى صـفـحـة
وحشـتك الـراكـدة .. صـمت الـوجـود أكـبر من ضـوضائـك .. لا تـبـحث عـن
خـيـمة وواحة ، فصـحـارى الشـرنـقة لا تـتـسع إلـا لك ، وشمسها لم تـخـلق إلـا
لـتـحـرقـك وحـدك .. اسـتـسلم .. زبد العاصـفة سـوف يـحـملك في درب الفـصول
الأربـعة .. لتـلف بك عـجـلة الأعوام المـهـترئة في ساقية العـمر الضـحـلة ..
وأنت سـتـظل رـغم كل شـيء وحـيداً وإحـساس بالغـربة يـطـعنك ..
رغم كل شـيء قل لـقـدرـك : « أتـحـداك بـضعـفي » ! ابتـسم .. فالسـعـادة
(المـقـطـرة) الـتي طالما حلـمنا بـها لن تـكون .. سـعـادتـنا في ان نـتـصر مـهـما
مزقنا نصـرنا ، وان نـعرف حـقـيـقة وجـودنا البائـس ، ونـحـبه رـغم كل شـيء .
حكايـتنا واحـدة .. أنت وأنا .

نحن البـاحـثون عـن فرحة بـكر لا تـمـوت في عـالم تـمـوت فيه مثـلنا وعـهـودنا

وضحكات الذين كانوا أصدقاءنا .. الممزقون شرانقنا من أجل رحلة ..
عمرنا سلسلة رحلات عجيبة للبحث عن سنديانة السعادة الهرمة في جزيرتها
الاستوائية .. كلنا سندباد وليس في افقنا نجمة .. وكل رحلة خيبة وتقلص
جديد الى أضيق أبعاد وجودنا ، واطلم ركن في شرتقتنا .
حكايتنا واحدة .. أنت وأنا ..

ما زلنا ندفع من أعصابنا ثمن آلهة التمر التي كنا قد خلقناها وعبدناها..
فلما طلعت الشمس عرفناها فأكلناها .. وانطلقنا نبحث عن إله جديد ..
لاهثين في موكب الحريف . مسحوقين تحت مصنفاتنا . منكمشين خلف
نظاراتنا وعقدنا . قابعين في أعماق هوات يأسنا . حالمين برنين مرساة
ذهبية في ذهول جمودنا .
حكايتنا واحدة .. ورحلاتنا متشابهة .

رحلتي الأولى بدأت منذ ثلاثة أعوام .. قرضت خيوط شرتقتي وتسلفت
منها .. وكان العالم رائعاً والليل شالاً زنجياً تتخطر فيه أوهامي . وأنا
نسمة مراهرة من أنسام نيسان الحارة .. وقررت منذ البداية ان اصطاد
نجمة الصباح . لذا نسجت من أنجرة أحلامي شراعاً غرست صاريته في
القمر ثم امتطيت القمر وأبحرت به في أوقيانوسات السماء لاصطاد نجمة
الصباح ، نبشت مدارات الكواكب وتسلفت الى كهوف الأفق ولم أجد
سنديانة السعادة الهرمة . وخلفت أصدقائي وبدأت أهوي وحدي .. ورأيت
الشهب تعيش نشوة الاحتضار وسحر التلاشي الوضاء في مقلة الليل فحسبتها
لأن شراع مراهمتي خر صريعاً يوم أشرقت شمس الواقع كلهبة شمعة باهتة،
محرومة من جلال ميتة الشهب وسحرها .

وانسلخت يومئذ بحدة عن ليلي العجري وخلفت ورائي ارجوحي
الفارغة بين أشجار بلهاء الطول تنوس وتنوس ولا تجد من يمتطيها سوى
الرياح .. وكنت أسمع من بعيد غمغات الرياح حول حبالها البنفسجية ،
لم تعد أنغامها الطفولية تقنعني .. والتهمت أحد آلهة التمر التي قدستها ..

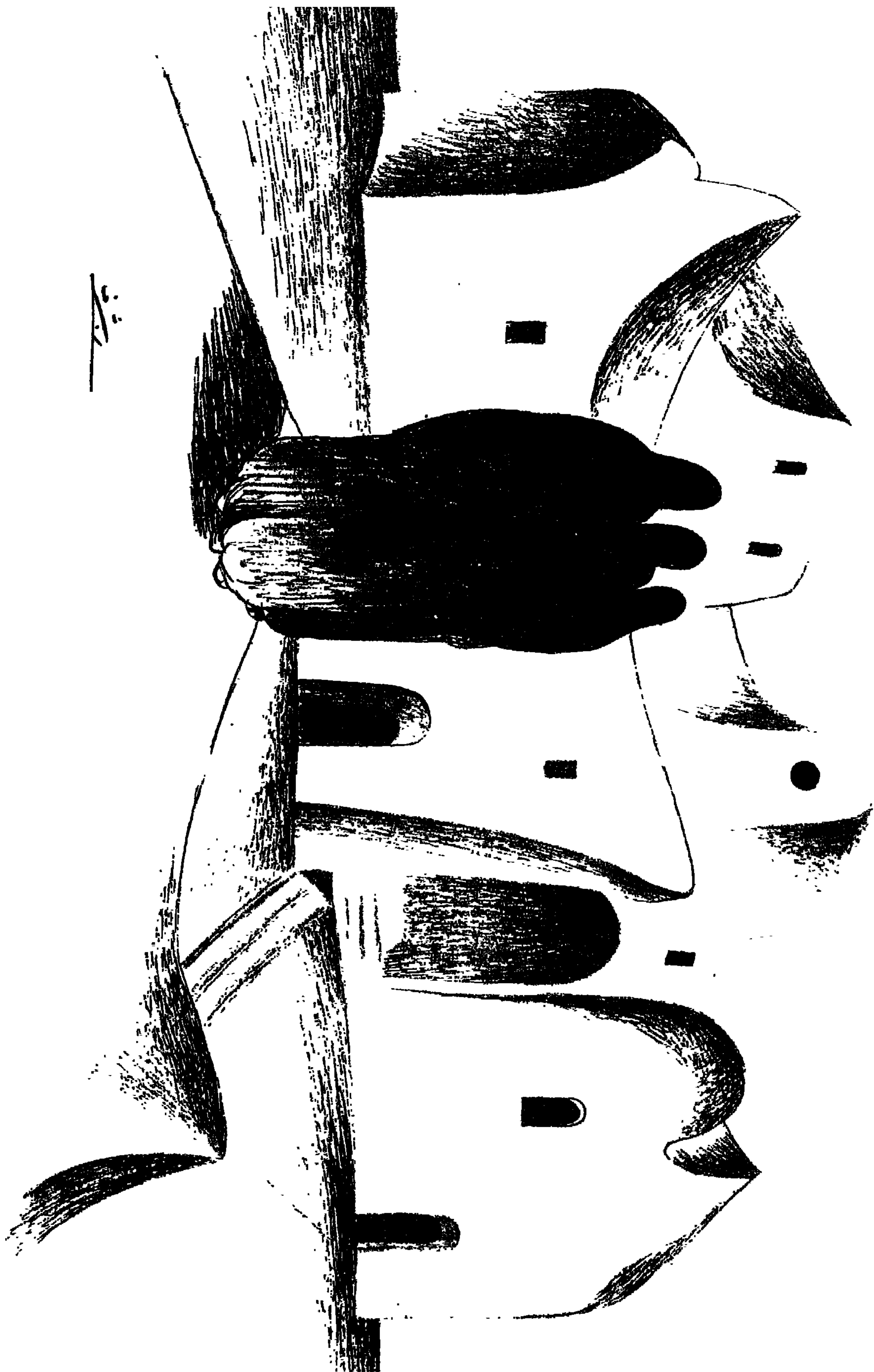
ورجعت الى فجوات شرتقي أرمم الفجوات بلحمي وألصق على كل جرح
بسمه .. لا أحد في الوجود يستحق شرف الشهادة بي .. واستيقظ السندباد
في أعماقي من جديد .. فقرضت شرتقي وبدأت رحلي في عيون الآخرين ..
وكانت العيون دهاليز مظلمة ، لا شمس فيها ، لا جزيرة مرجان ،
لا سنديانة سعادة ، لا شيء سوى شهوة زهور اصطناعية الى العبير وخيبتها
وقلق عاصفة وسأم شتاء . بوحشية انفلت أقطف المحار من أسواق فارس
وخيام بغداد وأضواء بابل .. وكنت أهدق في أعين المحار بينما يزحف
في قلبي دخان خاشع . يوماً ما سأجد ان عيناً من هذه العيون اللؤلؤة
المنشودة .. هي المشاركة الانسانية الحقبة التي أبدد بها وحشتي ومخاوفي ..
وكان المحار يتكدر تحت شرتقي .. فارغاً بارداً ، كأنه لم يسمع قط
جلال أغاني الأمواج ، وكانت النور تمر بشرتقي لتختطف البقايا !!
وعدت الى شرتقي أرمم فجواتها بلحمي وألصق على كل جرح بسمه.
كان من الصعب أن أبكي ، أنا التي تأملت حقاً ..
حكايئنا واحدة .. أنت وأنا .

عنادي هو عنادك .. وإصراري هو إصرارك .. وسندباد ظل يعود
كل مرة بلا شراع ، فلنعد الى شرتقتنا بدون تخاذل ، هزمتنا مرة حينما
اكتشفنا وحدتنا ، وسننتصر في ان نخلق الفرحة البكر من ذاتنا ، رغم
الثلج الأسود والمطر العقيم والبرعم الذي لا يزهر والزهر الذي لا يعقد .
رغم أقنعة الآخرين وموسيقى الشر في مجاملاتهم .
فالسعادة ليست سنديانة ، ليست شيئاً قائماً بذاته .. انها قدرتنا على
تطعيم شقائنا الانساني بالتماسك والرضى والتحدي .

آه يا صديقي الحبيب .. بردي

ساعة ردهتنا الكبيرة تشير الى السادسة بعد الظهر . باب دارنا يفتح .
المجنونة التي هي أنا تهبط الدرج وتغرس كعب حذائها الرفيع في اسفلت
الشارع المنصهر . وهي تفعل هذا كلما أمرتها دقات الساعة الست بذلك .
رابطة عجيبة تشد ساقها الى العقارب السوداء البطيئة التي تركض على ما
هي عليه من بطء ، تأمر وتحرك المدينة بأكملها وهي أسيرة الجدار
المصلوبة ...

وأسير .. يلذ لي أن أتأمل الأشياء حينما لا أكون قد نسيت نظارتي ! ..
الصيف في مدينتي أنامل غجرية لعوب تلون كل شيء وتعبث بكل شيء ..
تلون ثياب الحسان وتمتد بأظافرها التزقة الى اكمام الشتاء الطويلة فتمزقها
لتكشف عن أذرع بضة .. ترش الوجوه التي تومض حولي وأمامي بحرق
لزوج يتبخر مع أنفاس المتعبين المسرعين الى مكان ما .. ما الذي يركض
الانسان خلفه - غير الموت - ان يلهث ويتسلق العقبات طبيعي اذا كان
يعرف أين يذهب وماذا يريد . ولكن ، الى أين يذهب ؟ ولماذا أركض
وأتعثر وأناضل ؟ قلما أجرؤ على أن أسألك نفسي هذا السؤال .. مرساتي
أحملها منذ مددت يدي نحو المجهول بلهفة ، بحثاً عن وتد أتمسك به في
عدمية الزيف .. مرساتي ثقيلة تلسع ظهري حينما تقسو الشمس ..



مرساتي عنيدة تجرح الأشياء وتعريها ثم تلفظها . مرافىء المستنقعات لم تغرّها . المستنقع ساحر في ضوء القمر ، الزهور المرمية في حوض مياهه الراكدة تثير الخيال الأعشى .. برود الليل يخنق عفوثة الماء ، وظلمته تخفي ضحالة الزوايا وما يدب فيها . قمر الخيالات والحب السطحي الذي تبدأ حدوده عند ربطة عنق أنيقة وتنتهي عند ربطة حذاء جديد .

ومرساتي تهوى حرارة التجربة ومرارتها ، لأنها تضيء بالرغم من انها تحرق . ولأنها حينما تضيء تكشف عن ديدان المستنقع المخاتلة وعن تلون المستنقع وهوامه ..

مرساتي هجرت مرافىء الضجيج لأن فأر المطبخ يملأ الدنيا ضجيجاً اذا حرك ذنبه قرب الأوعية النحاسية .

يا مرافىء الدفء والأمن والحنان .. يا ضائعة في خلجان شرقية مزهرة الأفق .. يا غارقة في روحانية ليل صامت .. لماذا ولدت الحقيقة خرساء؟ لماذا تكون أعماق المياه أقلها ضجيجاً .. يا غموض رجولة حارة كالتوابل.. أنتظر مرساتي فقد أثقلها حنين الحديد المحمى الى فحيح النشوة عندما يغمس في الماء ..

وأحاول أن أمزق حنيني الى الأشياء الغالية البعيدة .. وأعود أتأمل الناس . أكتشف انني وصلت الى المكتب المنتصب أمام بردى في عمارة شاهقة .. أرى الناس قد تجمعوا حوله .. عشرون عاملاً يدفنونه !! .. خمسون ماراً يشيعونه متفرجين بلامبالاة بلهاء على صديقي الذي سهروا عند ضفافه .. صديقي الذي طالما واساهم ورطب وجوههم الجافة وانطلق من (بحراتهم) في السهرات الحلوة شلال ضياء .. بردى ... انهم يغطونه ! .. لماذا ؟ نافذتي المسكينة ماذا فعلت حتى ينتزعوا من صدرها أجمل ما تتحلى به ؟ .. لن أنظر خلالها مستنجدة بعد اليوم لأن صديقي يرحل الى أعماق الأرض .. آه كيف تجمع الناس حوله بفضول كأنه مشنوق في ساحة

المرجة .. آه فكوك الآلة الضخمة كيف تمشوا التراب بين أسنانها وتهيله..
آه نهري الوديع الذي ظل أبداً يخرق الشارع مجنون الحركة ، ويترقرق
بصفاء انساني كان يغمرنى بالدعة والعزاء، بينما تزرق الحافلات موتورة..
ويحرك الشرطي يديه فينسكب سيل من السيارات يصطدم بعضها ويعول
البعض الآخر مع نواح عربية الاسعاف .. الأكداس البشرية تتلاطم مسعورة
لاهثة في سباق أبدي مع الساعات التي تعبثها بنفسها، كأنها أحق يسابق ظله !..
صديقي ظل وحده يترقرق بصفاء .. ببساطة صامته .. يطوي في
أعماقه حكايا حزينة وحكايا ضاحكة .. الشهداء الذين شفقوهم أمامه في
ساحة المرجة أسروا له بالكثير قبل وفاتهم . الثوار الذين هاجموا السرايا
النائمة الى جانبه ليمزقوا الفرنسيين غسلوا جراحهم في طهره ووفاته ...
العشاق الذين تعاهدوا بين خمائله .. وليالي معرض دمشق ..

آه نهري الصديق لماذا يدفنون آخر خيط يشد عمري الأهوج الى الصفاء؟
رغم اني أعرف رأي خبراء الصحة في دفتك (يسمونها تغطيتك) ..
رغم اني أعرف رأي خبراء المواصلات في ذلك، ورأي المهندس والميكانيكي
وشرطي السير .. رغم كل شيء، أبكيك يا صديقي الصامت الوفي وتبكيك
طفولتي المحزونة ..

١٩٦٢

الى .. مليونير تافه

السيد المليونير ...

أنا كاهنة الصمت . طفلة هرمة في الصحارى المقفرة ، وحيدة كصدقة مهجورة . أحب الوجوه العارية وأكره الذهب والنفاق ..

شراعي ؟ لمن أرفع شراعي ما دامت الرياح قد ماتت ؟ لمن تهزج عيناى وأهدابها خيوط صقيع ؟ لمن اسجد ومثلي مصلوبة فوق السنة التافهين ؟

لمن يا زهر الليمون تنشر عطرك الدافئ نداءً ليلكياً مبهماً في عتمة غرفتي الصغيرة ؟

أي باب عدت تقرر أيها الغريب ؟ كيف تجرؤ على أن تعود ؟ تطل أسنانك الصفرة المدببة خلف ضحكك الرخوة .

لماذا أضافحك ؟ اني أعرفك . لا تقرب ، لست دمية في سوق الجوارى، لست من رعاياك .

اقنعتك الملونة لا تخدعني ، ثيابك سوداء وذاتك ضحلة وذهبيك لا يبرر تفاهتك، لا أستطيع أن اتحمل حديثك وتملقك وأنت تباهي الوقت بطوله بألوان الربيع في ذاتك كما يفعلون جميعاً. لقد اكتشفتك فنبذتك.. أجل ! اني وحيدة وحزينة ، لا تقرب ، في عينيك لا تضيء منارتي..

يا ابن اسفلت المدينة ، يا ابن الطحالب ، يا رجلاً بلا جذور .. ماذا
تستطيع أن تمنح طفولتي وكهولتي ، أي شباب تذكى كلماتك المزيفة في ذاتي ؟
أعرف أنك تخدعني ، اني أجهل ، لا أبالي ، اني واجهتك بالبلاهة ،
يا لتغابي ، حتى سئمت .

فلتسقط أقنعتك الملونة المذهبة ! أعرف أنك مزيّف ، فلتذر الرياح
ضحكاتك وحكاياك ! اني لن أصافحك ! أثير فضولك ؟. تريد أن تسمع
حكاية عزلي ؟ فليكن ، ما دمت لن تفهم شيئاً !

ذات أمس هو يومي وهو كل يوم ، كنت طفلة تحب القمر الذي
يولد من قرميد البيوت في مزرعة صغيرة .

وكان كل شيء ملوناً ، وكانت وجوه أهل المزرعة وثيابهم وذواتهم
رائعة الألوان ، فكانت الضحكات ملونة والحكايا ملونة تغسلها أمطار
الشتاء ورياحها فما تزول الألوان من الأشياء وانما تزداد أصالة وتعقلاً .

قالت لي أمي : حذار من الهرب ...

ولأنها حذرتني هربت . قررت أن أكتشف المدينة الملاصقة التي سمعت
عنها طويلاً والتي طال ما تأملت أسوارها الفضية المتوهجة في السحيق
السحيق .

بنزقي الأهوج الى المجهول ، بطفولتي الملونة ، بشبابي الملونة طرت
الى المدينة .. كان كل شيء مخضباً بدخان رمادي حزين .. وكان الآخرون
يمرون بني كالأشباح .. وأدركت في لحظة رعب حقيقية ان لا ربيع في
المدينة .. لا ألوان في الوجوه والنفوس والأشياء .

قلت في نفسي . سوف انتظر حتى يطلع الفجر ثم أقف في مكان ما
لامنحهم أغنياتي .. علمتني قريتي العطاء .

وانتظرت طويلاً .. كانت الشمس تطلع وتدور في قبة الفضاء ثم
تنفق ولا تضيء .. وسمعت العابرين يمتدحون جمالها .. فذهلت .. لو

انهم يعرفون الشمس حقاً ! وأدركت ان لا فجر في المدينة ورغم كل شيء قررت ان لا أهزم ، وان أغني .

ولما وقفت في الساحة الكبيرة وأنشدت بعفوية وبساطة أغنياتي الملونة ، تجمع أهل المدينة حولي يتحسسون ثيابي وطفولتي برعب حاقده . قلت في نفسي : « لا ريب في ان ألواني تدهشهم . سوف أرشدهم الى قريني ، الى حيث تتفجر الألوان تحت الشمس » .

وتشاور أهل المدينة قليلاً ثم هتف كبيرهم : ان ثيابها .. وأغنياتها رمادية ، انها قبيحة .

صرخت : أنتم لا تفهموني .. الحقيقة ..

قاطعوني : الحقيقة هي الأمر الواقع !

صرخت : حاولوا أن تفهموا كي تكتشفوا أشياء جديدة .

قالوا : ليس في الإمكان أبدع مما كان !

قلت : دعوني أعُدّ ..

قالوا : من دخل المدينة مرة أغلقت عليه أسوارها الى الأبد .

قلت : سوف أبقى ، لكنني أرفضكم .

قالوا : نحن ، أو صحارى الصمت ، هذا كل ما تضمه أسوار المدينة.

انهم يكرهوني لأنني لا أشبههم ، ان علي أن أصبغ ذاتي بالأسود ، وان اصبغ ثيابي وأغنياتي بالأسود، ثم ادعي انها هي ذاتي أو تنفني المدينة الى صحارى الصمت، ورفضت أن اصبغ ثيابي وأغنياتي ! واخترت صحارى الصمت .

وبدأت أصلي : يا صمت ، يا ابن الآلهة .

اغرس جذورك في أرض الحقيقة الصلبة ، اغرس جذورك في دنيا الجبروت اللامبالية ، دعها تمتص كلمات بلا ثمن ، وأفراحاً ملونة عتقت عصوراً في كؤوس اغريقية مرمرية، يا صمت يا ابن الآلهة ، لماذا ولدت الحقيقة لأب غير شرعي فإذا بها تطرد من باب الى باب، وإذا بها تهان

وتدان في مدينة القيم المتعفنة ؟

يا صمت يا ابن الآلهة، اني هنا كاهنة جديدة .

إقطع لساني كي لا يضعف مرة عن قول الحق ، مزق جسدي كي لا تغريه توابيت الذهب المعلقة، واقتلع عيني قبل أن أبدلها بماستين وهاجتين،
يا صمت ، برعب ميلاد الحقيقة في نفسي أسجد لكونك الرحب، للوجوه العارية أينما كانت ، دعني هكذا ، كيأناً لا يدرك بالحواس المعتادة ،
كيأناً مبهماً ، ضبابية متفجرة الألوان تحدث قِيَمَهُمْ ومفاهيمهم ورحبت بصحاري الصمت ، يا صمت العزلة ، دعهم يثرثرون ، حديثهم من نوع لا يسمعه إلا من يقوله ! دارتهم مغلقة بلا شحنات عطاء .
لك وحدك ، للحقيقة في ذاتك أسجد .

وهكذا أيها الغريب المتأنق .

لما اقتربت مني ، لما غرقت في قالبك (السموكن) وابتلعت أقراصك المغذية، ثم همست بكلمات (كازانوفا) في أذني ، لما ظننت انك سحرتي ، وحمليت راية دون كيشوت ومددتها على صخوري شارة نصر ... واجهتك بالصمت ، هل رأيت كيف يرقب نسر دودة تتسلق السفح لتغزو عشه؟!
لما ظننت انك تخدعني، ان شعري المتناثر في الحفل مدارات في فلكك، كنت ازداد إيماناً بأن لا مفر لي من صحاري الصمت ، وان تترك في دنياي لا يعني شيئاً ، وانني لن أحبك ، ولن أحبك إلا إذا رضيتُ بأن أبدل عيني بماستين وهاجتين من سوق المدينة .

ورفضت . اني لن اصبغ ثيابي بالسواد ثم اتباهى بألوانها الموهومة كما تفعل أنت، مهما كان الثمن .. هل تفهم ؟

كاهنات الصمت يحتقرن رجال الطحالب المذهبة ، يا عفن التبر !

يا صمت، يا ابن آلهة العزلة وسجانات الحقيقة، اني هنا كاهنة جديدة .

كل يوم يطل طارق جديد .
بين شفتيه حكايا كازانوف ، وفي جيبه راية دون كيشوت ، عيناه ماستان
وهاجتان يرى الأشياء خلالها ، ووجهه رُغم أقنعتة الملونة رمادي .
كل يوم يطل طارق جديد ، ماذا أجيب ؟
وأنا ما زلت كاهنة الصمت والعزلة ، طفلة الصحارى الملونة التي تحب
الوجوه العارية وتكره الذهب والنفاق .
شراعي ؟ لمن أرفع شراعي ما دامت الرياح قد ماتت ؟
لمن تهزج عيناى وأهدابها خيوط صقيع ؟
لمن يا زهر الليمون تنشر عطرك الدافئ نداء ليلكياً مبهماً في عتمة
غرفتي الصغيرة ؟

١٩٦٢



رسالة إلى « لا أحد »

يا صديقي !

حينما نشعر بأننا جمرات نثرتها الآلهة في صقيع العلاقات البشرية لتفنى
ببطء ... حينما نشعر اننا فترات صمت داعم في ضجيج المدينة الملون
بأضواء الاعلانات .. حينما تتخاذل عضلات وجوهنا فرفض أن تضحك
أو تعبس أو تعبر عن أي شيء معتاد يفهمه الآخرون .. حينما يحرمنا الله
— ولو ثواني معدودات — من نعمة التفاهة وطمأنينة الجهل ، ندرك أن
لا مفر من لحظات رعب العدم المطلق .. تلك اللحظات التي نواجه فيها
بجدية أسئلة عجيبة: من أنا ؟ ماذا بعد ؟ ما معنى أن أكون ؟ ماذا أريد
من الآخرين ؟

إنها لحظات ما وراء الحب ، ما وراء الغريزة ، ما وراء التخدير
والصداقة .. وندرك اننا رغم الأم الطيبة وماسح الأحذية الذي يقبع عند
أقدامنا بصمت ، وصبي البقال الأعرج ومؤتمرات نزع السلاح ، وحكاياتنا
الشاحبة والمتوهجة ، على الرغم من كل شيء نعيش لذعات أسمى حقيقية ،
لذعات انفصال تام .. هنالك شيء ما ، شيء حزين قابع في مكان ما ..
هنالك آدم أعزل مجهول يواجه مصيره العادي بكبرياته العارية .. هنالك
شيء ما .. قابع في زاوية ضيقة من أغوار إنسانيتنا حيث تمتد أصقاع
شاسعة من الوحشة والحزن المتكبر الغامض ... أعماق عجيبة الانسلاخ

عن حياتنا العادية ، لا تطولها أمواج الحب ولا الصداقة ولا تقوى على خرق عزلتها الأصيلة سعادة زواج أو دفء مجتمع ودود .. أعماق يضحج بؤسها بالكبرياء ، بالعناد ، بالمكابرة ، بالإصرار على اليأس من وجود ذرتين متجاذبتين حقاً في كوننا كله ..

إنها آفاق الرعب الحقيقي ، أعماقنا البكر ...

أما تمنيت أحياناً في ثورات غربة عميقة الجذور أن تقول شيئاً ما ؟ أن تبحث عن شيء ما في المجهول ، في الصمت ، في اللاشيء ؟ أما أحسست مرة بحنين الأعماق البكر الى لذة الاعتراف أمام عيني غريبتين لا تدري أي مجهول فيها استهوى مجاهلك ؟ أما أحسست مرة بالتهافت على نشوة الانبلاج في نفس لا تدري كيف أثرت على نفسك .. لا تدري لماذا هي بالذات أسرتك ؟ كأنما كنّا صديقين منذ دهور قبل أن يوجد الآخرون وأنظمتهم وشرائعهم .. انك لا تريد صداقة .. لا تريد حباً .. لا تريد شيئاً أطلقت عليه أسماء .. لا تريد أحاسيس استهلكك .. لا تريد انفعالات وجدت في صدر انسان قبل أن تخلق في صدرك .. أعماقك البكر تبحث عن كلمات بكر ، علاقة بكر تستطيع أن تتجاوز أسوارها العجيبة .. ويمر القطار سريعاً .. لا نستطيع أن نغفل في النهر نفسه مرتين .. ينطفئ الشهاب ونشرق من جديد .. تفرق ذاتنا في ذعر ذاتنا .. الرعب في الأعماق البكر يبتلع كل سراب ..

ماذا نقول حيناً نتصرف كالناس المهذبين ، لكننا حين تواجهنا وجوه أحب الناس إلينا نكتشف أحياناً أنها مسطحة بلا أبعاد، أحبيناها لأنه كان علينا أن نحبها ، بينما تتكامل الحقيقة في العميق العميق وتبعث بأصدائها الى دنيا وعينا : ماذا تستطيع الوجوه المسطحة المسوخة أن تمنح ؟

ونحسد السعداء ، الذين يحملون أعماقهم البكر مهمة منسية .. ان أعماقنا البكر تنمو يوماً بعد يوم نمواً سرطانياً مربعاً وتكاد تغطي معالمنا النفسية بأكملها .. اننا ننكر بإخلاص اننا عرفنا انساناً قط من قبل ..

نتماسك بؤساء نحن لكننا لا نجرؤ على أن نقول ذلك، فمن المفروض
اننا سعداء ... القطيع سعيد أبداً .. يتمرغ في وجود قطباه قصعة طعام
وفراش ... يتهامس عنا .. نحن المرضى النادرين في المدينة الموبوءة ،
الذين يدركون انهم مرضى حقاً ...

ماذا نقول للسعداء الذين يحملون طاعونهم جاهلين هائثين ؟ كيف نحدثهم
عن سعادتنا يوم تبرعم في رعب أعماقنا شمس ما ؟ كيف نحدثهم عن
الطمأنينة وهم الذين ما عرفوا القلق ؟ كيف نحدثهم عن الشفاء وهم الذين
ما أدركوا قط انهم مرضى ؟
ترانا نرضى بأن نحدثهم يوم تبرعم شمس في أعماقنا ؟

١٩٦٢

أمي يا أولوة لن تعود

وراء رتابة حكاياتنا المسحوقة فوق جدران النوادي ، وراء ذعر أعيننا ،
وحقد أعين الآخرين المغروسة في نفوسنا ..
وراء خوفنا من لا شيء ومن كل شيء ..
وراء أزماتنا المطوطة وضحكاتنا الهلامية ..
وراء أقنعتنا الموناليزية والكرامازوفية ..
وراء هذا كله تنكمش (الأنا) في مهرجانات الرقيق والكوكيتيل ..
فإذا نحن آلهة ممسوخة في مرآبع الرياء .. أعيننا أنيقة ملونة ، لكنها بلا
نبض ، بلا وهج ، بلا حياة .. تراحمها عيون الآخرين في وجوهنا
وضمائرنا .. وإذا نحن حصيلة مشوهة لتشوه الآخرين .. وإذا (الأنا)
مصلوبة في أعماقنا .. وإذا الحقيقة ، حقيقتنا ؛ وشم من جمر يدمغ
الأنا .. يلسعنا .. يمزقنا ..
لكننا جبناء .
لكن عروقنا جذور خوف اعتادت صداقة الطحالب ..
ولكن الأرض الحقيقية ضاعت في زلزال القيم ..
لكننا نحن لم نعد نحن .. هل تجرؤ ، هل تجرؤ حقاً على أن تقول
ما تريد ؟

فلنرفع أقنعتنا ولنبصق ضحكاتنا .. ولنقف في الريح كأعواد القصب..
عارين إلا من حقيقتنا .. عارين إلا من وشم الجمر .. يا أنت ، يا جمرة
في وشم الجمر .. عيناك كالرمح وخازتان .. أحتضنها منذ طفولتي ..
منذ بكى شاعر وناحت نجمة ، وقالوا انك رحلت .. عيناك كالندم
مؤلمتان .. جمرة في وشم الجمر صورتك .. أحملها لعنة محبة .. وأظل
أرقص لامبالية في مهرجان الرقيق والرياء .. من يجرؤ على تعرية وشم
الجمر .. من يجرؤ على أن يقول : هذا أنا ؟

فلنرفع أقنعتنا ولنبصق ضحكاتنا .
الثلج يحتضن المدينة .. يحتضن الدرب الى الغوطة والجبل الأسمر ..
غرفتها مغارة تبغ وعرق مضيء .. شفتاه عجيبة من حكايا علي بابا،
تسفحان السأم والحنين .. أيامه مكدسة بين نيران المدفأة التي أغمضت عيونها
إلا عيناً ظلت تسكب وميض اللهب .. وكان يثرثر .. يكذب .. ينثر
الطيب .. والريح في الخواء تهزج ساخرة ..
سمعتة يقول لها : أستطيع أن أخرج الى العاصفة عارياً من أجل
عينيك .. أسير في درب الثلوج حتى الجبل وأقطف لك أعشاش النسور..
وضحكت وهي تقول : أخرج الى الناس عارياً من أقنعتك .. لأجلي ..
هل تجرؤ ؟! هل تجرؤ على القول انك تكره زوجتك ؟ وتحبني أنا ؟
لم يجب . ظلت تضحك . ضحكاتها الشيطانية تملأه بإحساس من
حقدهم عليها ، وانجذاب خفي خفيف اليها ..
يكرهها لأنها تجرؤ على أن تتحدى عيون الآخرين التي غرسوها فيها،
وعلى أن تكون نفسها .. ولأنه استطاع أن يكون كل شيء وأي شيء..
إلا نفسه !

فلنقف في الريح كأعواد القصب .. عارين إلا من حقيقتنا ..

يا أنت يا جمرة في وشم الجمر .. لماذا لأقول لهم اني وحيدة وحزينة ؟
قبرك محارة يا لؤلؤة لن تعود .. صائد اللؤلؤ والمرجان رحل .. للم
أوتاره ولفافاته ورحل ... يا أمي يا جمرة في وشم الجمر .. أعين
الآخرين في نفسي تمزقي ، تنهشي ، تصابني رغم ايماني بأن ما يمليه وشم
الجمر هو وحده الحقيقة والصواب .. وأنا أضاحكهم رغم كل شيء في
مواكب القطيع منذ دهور .. يا غصبة دواة يسكبون حبرها لصيغ حذاء ..
هكذا يولد الرعد بعد أن تنام المدينة !

انطق يا وشم الجمر بعد أن تنام المدينة .. منك ، منك وحدك ،
من عارك وحقدهم ، من صدقك وكذبهم ، من جبروت ضعفك وسمو
سقطتك ، من عريك ينبض الحرف ويتوهج ..

انطق يا وشم الجمر ، فجيل الحفاش ما زال ينسج شباك العدم بين
المكتب والمقهى ..

انطق يا وشم الجمر ، عيناه كالرمح تمزقاني ، تلهباني ، والآخرون
يزرعون أحقادهم وجواسيسهم وآراءهم في نفسي .. انطق يا وشم الجمر
لتتعري الأنا بصدق في دوامات الوجود .. لن ينهش من إخلاصها جيل
الحفاش .. لماذا لا أقول لهم اني وحيدة وحزينة ؟!

ما في حدا .. لا تندهي .. ما في حدا

الصقيع العالق بين اهدابنا بدأ يذوب .. لماذا لا نرفع القناع قليلاً
لنمسح دموعنا ؟ طويلاً ضحكنا وتشاجرنا وعبثنا وما زلنا نضحك ..
تحدثنا عن كامو والتصخم النقدي وثوب - لولو - عاري الظهر ومعجون
الأسنان الجديد، ولم نتعب .. يرقصون حذاء يطاءً على حذاء ..
لكن الصقيع العالق بين أهدابنا بدأ يذوب .. لماذا لا نرفع القناع قليلاً
لنمسح دموعنا ؟

أحدهم يخاطب قناعي ويقول له - هل تسمحين بهذه الرقصة - ؟
اسمعه يجيب : شكراً لك .. لا أحب أن أرقص ...
وأغيب عن الجميع ... اخلفهم مع موسيقاهم وعظورهم ومشاكلهم ...
لم أعد اسمع سوى صوت فيروز الذي يصلني منتحباً في خواء شيطاني
ويحملني ليرمي بي الى كهف رعب ووحشة وظلال ... اسمعه يثن :

ما في حدا ... لا تندهي ، ما في حدا ...
عتمة الطريق .. وطير طائر عا الهدا ..
باجهم مسكر .. والعشب غطى الدرج ..
شو أولكم .. شو أولكم .. صاروا صدى .
وما في حدا ...

وينبسط درب المصير أمامي .. مظلماً مغرقاً في الوحشة .. السماء تندب
نجومها التي انتحرت .. لا يؤنس وحشتها سوى طير ضال عبثاً يبحث
عن غيمة يغازلها .. وأسير .. داره تلوح من بعيد ... اتسلق درجات
معشوشة رطبة .. الطحالب تتمزق تحت قدمي العاريتين ، وأحسها ديداناً
هرمة انسلت من قبر ما .. وأشعر اني انزلق وأترنح وأهوي وأدمى
وأتسلق .. هذا الباب يجب أن أدقه وان كنت واثقة من ان أحداً لن
يجيب .. وأظل أتمزق وأصعد بنزوة الشباب الى المجهول ، بحيني المجنون
الى ما وراء الأبواب المغلقة .. لكنهم رحلوا والبواب قد نسي كيف
ينفرج .. وتميد الأشياء وأهوي .. يتلغني صمت كهوف لم يلثم فيها المفخور
ضياء .. وأهوي عصوراً من عذاب .. لا أحد سوى وحشة سنونو أضاع
ربيعه .. الدموع تسد منافذ القناع .. يجب أن لا أبكي لئلا أفسد كحله
المتقن .. وتصرخ فيروز من جديد :

مع مين بدك ترجعي بعتمة طريق .. .

لا شاعلة دارهم ولا عندك رفيق ..

يا ريت ضوينا القنديل العتيق ...

بالقنطرة ، يمكن حدا كان اهتدى

وما في حدا !

ويمتد درب الرعب من جديد .. أذكر انه كان الى يمينها شاطئ
أسود الرمال أبيض الزبد .. وكان للشاطئ شمس تفتتح في أحضانها السماوية
كوردة بركان حمراء قبل أن تغرب عن الشاطئ الأسود .. وكان الى
يسار الطريق غابة وقر عابث يلهو بأراجيح الغمام .. وكانت الألحان
الوديعه والضحكات وشهقات الفرح الطفولية تنفجر من كل شيء ..
وعيناه بالقرب مني ، ليل منمنم يغمرنى طيب دفته ... لم يبق سواي
في الدرب المظلم البعيد وقد بللني مطر مالح كالدموع ..
« مع مين بدك ترجعي بعتمة طريق » ...

وأحس يدي جافة كأشواك ما عرفت ما الندى .. يدي متعبة وضالة
وضئيلة .. كيف أعود ؟ وإلى أين ؟ وأذكر حكايا جدتي عن ليلي التي
ضلت طريقها في الغابة .. وأذكر أسفي ورعبي من أجلها .. ويغمرنني
إحساس طفولي عتيق بأنني أنا ليلي ، وإن أطفال العالم جميعاً ما حزنوا
إلا من أجلي .. كان لي قنديل صغير .. أين القنديل .. تنشج فيروز :
يا ريت ضوينا القنديل العتيق بالقنطرة ..

يمكن حدا .. كان اهتدى
وما في حدا ...

وأتعر بقنديلي .. الصدا قد أكل خديه .. الريح تعلق فتيله الجاف ..
وأحميه بجسدي من المطر كي اشعله . لهبته تترنح ببؤس غانية عجوز ثم
تنطفئ .. لا زيت فيه .. لا حياة فيه .. لا شيء سوى وحدة ووحشة
ونخبة ملتاعة ...

ويوقظني صوت حبيب إلى نفسي ، صوت أبي يقول: لماذا لا ترقصين؟
وأجيبه وأنا أحس أنني متعبة : لأنه ... لأنه — ما في حدا — !
ويضحك الأصدقاء . ييسم قناعي لهم كما ينفرج فم حصان ملجوم ...
لو استطعت أن أزيح هذا القناع ، لو استطعت لمسحت دمة .

١٩٦١



دع المساء الخريفي ينسكب

في فجوات العيون المتعبة

يا إلهي .. رحلة الصمت في صحارى الصبار أدمت وجودي وما ظفرت
بواحة جواب .. لعنة (فاوست) تنبض في عروقي .. رأته مصلوباً فوق
الصبار قرب شهريار .. افسح لي مكاناً بينها .. لن أهرب !
يا إلهي .. دع المساء الخريفي ينسكب من فجوات العيون المتعبة ليغمر
غموض أسئلتها بغموضه المخدر .. دع السحب تنبت في سمائنا وفي جفوننا..
تبرعم مطراً ينعش خيبة الضالين في متاهات اللاجواب .. الباحثين عن
الحقيقة .. الحاملين « لماذا ؟ » في موكب الثورة على وجود قطباه قصعة
طعام وفراش .. المسحوقين تحت أثقال « لماذا ؟ » وصمت « لماذا ؟ » ..
دوامة الحياة اليومية وما تفرضه علينا من التزامات طالما ابتلعنا ..
فتوطدت صداقتنا مكرهين مع المنبه والمفكرة ولفافات التبغ ..
سجدنا لبلاهة الدوامة في أفخر المطاعم . تشاجرنا . التقينا . سئمنا .
تحدثنا عن قطعة ميمي وفلسفة سارتر وزيت الشعر الجديد .. سئمنا .
تلذذنا بسخافاتنا وثيابنا الجديدة . أحنينا رؤوسنا لشرطي السير .. أغرقنا
الدوامة في ضجيجها المخدر . فاستسلمنا لسكرتنا البلهاء هرباً من صحواتنا
العقيمة ..

ما الذي يوقظنا من حين الى حين ؟ نترك مدينتنا ودوامتنا ونندلف في دروب صحارى الصبار باحثين عن شيطان نكتب له صكاً بدمنا ؟ ..
ما الذي يوقظ في أعماقنا شراسة وعمل بري يريد أن يخرق الغابة ليعرف ما وراءها ، فيعلق قرناه في كثافة الأغصان الملتوية كملايين إشارات الاستفهام .. فيقف حزينا كحسرة العقل الباحث عن جواب في مدارات النجوم بينما قيود البشرية البهيمية تشده الى التراب ..
ما الذي يوقظنا بين فترة وأخرى على بلاهة أيامنا ورتابتها ؟ حين نشعر فجأة ان الدوامة لم تعد تعيننا . وان الروابط الاجتماعية كافة خيوط عنكبوتية مفتعلة ..

نقف عارين من شهادتنا وألقابنا في صحراء الصمت المجذبة ، نتلفت بارتياح والوعل البدائي في أعماقنا يصرخ : لماذا وجدنا ؟ من نحن ؟ الى أين ؟ لماذا لا نستطيع أن نرفض الموت ؟ وننبش الأرض بأصابعنا بحثاً عن جواب .. الأرض لا تلد إلا الديدان والصمت .. وأسئلتنا تنبت في صحارى اللاجواب غابات من صبار .. ونرى فاوست مصلوباً فوق الصبار وقد أفسح لنا مكاناً بينه وبين شهريار .. لن نهرب !
ذات ليلة ..

كنت أقرأ عن انسان اسمه « فرويد » قال انه وجد الجواب والعلة الأولى لكل شيء .. وقررت .. اذا تأكدت من أن فرويد وجد الجواب فسوف أنتحر ..

وقال انسان اسمه داروين انه وجد الجواب ..

وقال كثيرون انهم وجدوا الجواب .. واكتشفت انهم كانوا يغيرون في صيغة السؤال .. يعقدون ويدورون حول استدارة صحارى الصبار واللاجدوى .. وتعلمت الا اصدق شيئاً .. وتعلمت ان اهرب .. اهرب من رعب السؤال وطلاسم الجواب الى دوامة الحياة اليومية .. لأغرق في الحديث عن قطة ميمي وفلسفة كامو واسبح في صحن حساء شفاف في

أفخر مطاعم المدينة .. يا أصدقاء في فجر الصحوات الممزقة .. يا غرباء ..
يا غارقين في شرائق الوحشة والعزلة ، وحدكم أحباي .. مثلي تقاسون .
وصمم الوجود وصمت الوجود ينفيانا الى عقم صحارى الصبار واللاجواب ..
يا نحن .. يا حسرة آلهة محكوم عليها بأن تجوع وتتألم وتموت .. لا مفر
من ذل سلاسل قصعة الطعام والفراش .. محكوم علينا بأن نهزم .. لكننا
سننتصر بأن نتحدى رغم إيماننا سلفاً بأننا مهزومون .. وسنبعث ، ننبش
أعواد الصبار بأيدينا وأهدابنا .. رغم إيماننا بأن لا جواب .. يا أنا ..
يا عنيدة المجهول .. لو وجدت شيطان الحقيقة لوقعت أي صك ولما رفضت
أي مصير .. بين فاوست وشهريار متسع لنا جميعاً .. لن نهرب ، لكننا
لن نرفض .. قد يكون ضرورياً ان تظل هنالك أسئلة بلا جواب كي
نستمر في الحياة والكفاح والبحث ..

يا إلهي ! دع المساء الحريفي ينسكب من فجوات أعيننا المتعبة ،
ليغمر غموض أسئلتها بغموضه المخدر .. دع السحب تنبت في سمائنا وفي
جفوننا .. تبرعم مطراً ينعش خيبتنا ، نحن الضالين في متاهات اللاجواب.



لأن أرا نبي البيض .. ما قت

أخي سلمان
لم أعد أخشى شيئاً ، لأن أرا نبي البيض مات أمام عيني ، ولأنني
بكيته ودفنتها .. ولأنني مع ذلك نجوت ..
أرا نبي البيض . تلك الأرانب التي تحدث عنها جيورجيو في (الساعة
الخامسة والعشرون) ..

الأرانب التي يحملها الرجال معهم في الغواصات، وعندما تبدأ بالاحتضار
يعرفون أنهم لن يستطيعوا البقاء تحت سطح الماء أحياء أكثر من ست
ساعات أخرى ؟!

متى وكيف ماتت ؟

كان ذلك في مثل هذا اليوم منذ عام .. كنت منهددة في غرفة كثيفة ،
وأمامي أكداش من الكتب لم أقرأ أكثرها .. وشبح الامتحان القريب
يتأرجح مع نسيات الصيف في طيات الستائر .. وأنا وحيدة .. مريضة ..
ذابلة .. أترنح كشجرة عجوز سودتها الصاعقة .. قد بلغت نقطة الصفر ..
نقطة التلاشي ...

دهمتني الشيخوخة قبل العشرين .. كنت أهوي الى أعماق أخاديد الوحشة
والأسى .. وأرا نبي البيض .. لو رأيت توجعها ولهاثها .. لو عرفت أنينها

وحشرجتها وهي تحتضر .. أمام عيني تحتضر .. كثير من الأرانب البيض
التي ولدت معي .. حبت معي .. ذهبت معي الى مدرستي وضحكت كما
لم يضحك طفل لتخايبتي والأعبي .. عاشت معي أول حب وأول خيبة
وأول غثيان .. قالوا لي صلي من أجل أرانبك البيض كي لا تموت ..
وصليت .. السماء ظلت قبة فولاذ رمادية .. النجوم هاجرت كي لا ترى
موت أرانبي البيض .. أحدها خر الى الأرض موجعاً فابتلعت الظلمة
رماده وضياهه .. حاولت أن أكون فتاة طيبة كما علموني كي لا تموت
أرانبي البيض .. كي تظل أبداً عيونها الخرزية لكآبتي .. تملأني بسعادة
تفوح منها رائحة تراب ضمهخه المطر ..

أيام طويلة ونحن نعيش في جو أصفر ، مريض ، مسعور الظلال
كغروب في مدينة روعها الطاعون .. أيام طويلة والذين كان لهم في قلبنا
مرضع يتجاهلوننا .. أيام طويلة تحمل كل لحظة من لحظاتها فاجعة بفكرة ..
برمز .. حطام اسطوانات محببة .. مرآة ممزقة الطلاء .. قلم جاف ..
دواة سكبوا حبرها لصبغ حذاء ... تمثال زنجي تأكل الديدان ابتسامته ...
سمموها .. أرانبي البيض سمموها .. البرد الذي غاصت أظافره في دفء
جلدها الأبيض ملأني برعدة ممزقة .. وكان العرق مع ذلك يبللني ..
كثير من العرق الذي ضاع مع دموعي ... لست واثقة ان كنت قد
بكيت أم لا .. كنت أبكي بمسامي .. كل حبة عرق كانت دمعة
محمومة عمياء أضاعت طريقها الى عيني ..

أبدأ لن أنسى ضحكات العابرين تلك الليلة تحت شرفي .. أبدأ لن
أنسى ان أحداً لم يشعر بعذاب امرأة اطبقت بأسنانها على خشب النافذة
كي لا تنادي أحداً .. لأنها تعرف ان أحداً لن يستجيب .. لو تسمح
كف ذل مرضها وهزال وحشتها .. لو يطل من رسوم السقف وجه
انسان .

أرانبي البيض ماتت تلك الليلة .. واكتشفت أشياء كثيرة صممت على

ان لا انساها اذا حدثت المعجزة ونجوت .. اكتشفت اني ذرة مظلمة
ستظل أبداً بلا مدار .. بلا عناق مع شعاع .. الشمس كانت مظفأة
حينما نظرت جيداً .. والكواكب تنتحب في هوات السماء السحيقة وأراني
البيض ماتت دون أن تؤنس ذعري ابتسامة .. ماتت ..
لم يبق إلا أن انتظر الساعة الخامسة والعشرين .. لأموت ..
وماذا بعد ؟

لا شيء .. لم أمت . شفيت .
التهمت حروف كتي . ليس في الوجود من يستحق ان أهبه فرحة
الشماتة بهزيمتي .. درست بجميع حواسي .. بعذابتي .. بفجيرة مراهقتي ..
بأظفري .. اكتشفت ان اخطاء الأقوياء تسمى بالنوادير والطرف .
إن التجارب الممزقة تزيد في قوة الانسان إذا لم تقتله !
انها على الأقل تكشف له ان كان قادراً على ان يحيا أم لا .. انها
دن النيذ الاسبارطي الذي كانوا يغمسون فيه كل طفل يولد لهم ..
فإذا عاش بعد هذه التجربة المرهقة فهو قوي البنية ويستحق حق الحياة ..
وإلا فإنه يموت .. وخيائنا وأحزاننا ومآتم أرائنا البيض ليست إلا دنان
القدر التي نهوي في لزوجة كوارثها . ونتخبط .. ونحترق .. ونتمزق ..
وإذا نجونا .. فقد نجونا من ضعفنا وجوعنا الى عطف الآخرين .

١٩٦١

وجدت حقيقة في أن تذوب «الأنا» في «نحن» !

يا رفاق .. بحثاً عن حقيقة نحترمها ، نشرد في الدروب كل على طريقته .. قد نبحت بحماسة جمرة شاردة ، أو برود سلحفاة .. قد يكون بحثنا عملية واعية مرهقة ، وقد يكون رغبة لاشعورية تطفو فوق تصرفاتنا ، ويكون تعبيرنا عنها خاطئاً أو غير خاطيء ...

كلنا يبحث عن حقيقة يسكن اليها ويرى وجوده من خلالها ... حبيبة وفية .. صديق .. موقد فيه نار .. فكرة .. مثل أعلى .. كلمة صادقة حتى لو كانت شتيمة .. أية حقيقة . وكلنا قد عرف مرارة الحبيبة مرات ومرات حينما تتعري الأشياء فجأة فتبدو بلا أقنعة وبلا أصباغ ، تسخر من طقوسنا ونحورنا ومراهقتنا ...

سأروي لك نكتة ، قد تقول انها قديمة ، وأنا أعرف ذلك ، ولا أرغب مطلقاً في إضحائك .. لكني سأرويها .

اشترى رجل أربع تفاحات ، ولما عاد بها الى داره جلس ليأكلها . أمسك بسكين ، ولم يكده يقطع الأولى حتى وجد فيها دودة ، فرمى بها وأمسك بالثانية وقطعها ، فوجد فيها دودة ، فرمى بها وقطع الثالثة فلم تكن خيراً من سابقتها .. ولما رأى انه لم يبق لديه سوى تفاحة واحدة ،

نهض وأطفأ النور ثم التهمها في الظلام كي لا يرى شيئاً
إنها ليست نكتة ! إنها مأساة ! هل ترضى بأن تأكل تفاحتك في
الظلمة خوفاً من أن ترى ما يمكن أن يكون فيها ، وتتألم لفقدائها ؟
هل أنت مع الشاعر العربي الذي قال :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه ..

أنا جميعاً لا نملك إلا أن نمارس هذا الأسلوب في حياتنا اليومية ..
قد نتجاهل كذبة صديق عزيز ونتركه ينتشي موهوماً بأنه استطاع خداعنا..
وقد نساير انساناً له في قلبنا موضع فنقول له « أنت على حق » كي
نتحاشى مناقشة عقيمة .. من منا لم يطفىء النور مرات قبل أن يلتهم
تفاحاته الأربع ؟ من منا لم يجلس الى نافذته في عتمة الليل ليغازل ظل
الجارة في الشرفة المقابلة ، ويكتب لها الأشعار ، ثم يغلق نافذته قبل أن
ينام خوفاً من أن يكتشف في الصباح انه لم يكن يغازل سوى ثوبها الذي
علقته في الشرفة ليلاً لتزيل منه رائحة (البترين) الذي مسحت به بقعة
في الكم مثلاً ؟ لماذا أغلقنا النافذة مراراً ؟ كابرنا .. رفضنا بعناد
طفل أن نفتح أعيننا على عري الأشياء .. هربنا منها ...

لكننا مع هذا كله نعيش خطأ عاماً مهما تلوينا وانحنينا وهجرنا الدرب
ثم عدنا .. هذا الخط العام هو البحث عن حقيقة نهيبها لهيب عمرنا كله..
نحيا من أجلها ..

وأنا قد وجدت الليلة حقيقة .. في بسمه طفل .. في زغرودة عامل ..
في ثورة مشعل ، في التوهج العرييد لألعاب نارية على خد غيمة .. وجدت
حقيقة : أمزوجة شعب . موجة فرح تسطو على أحزاني ، تريحني من
كآبة فردية تذكرنني بأن في هذا الوجود ، في مدينة ما ، في واد ما ،
وراء ألف بحر يعج بأخطبوطات وحياتان وأفاع ، ووراء ألف غيمة مظلمة ،
وقم يلتقي فيها السحرة بعزائهم السود ومكانسهم الطائفة ، ووراء مدن

ترقص أنوارها بخلاعة لامبالية ، ان وراء هذا كله هلالاً شاباً ما زلت
انتظر ان يبرز في سمائي من جديد .. أمد نحوه يدي وبودي لو أزيح
بضعفها مدناً وجبالاً وبحاراً وأكداس ظلمات مطبقة .. سأحكى لك كيف
التقيت بهذه الحقيقة . كانت الساعة تشير الى العاشرة ليلاً حينما تأهبت
لمغادرة عملي ، وبكعادتني جمعت أوراقى وأشياءى المبعثرة وخرجت الى
المصعد .. أخذ يهوي والجدران تركض مذعورة نحو الأعلى .. وتصيني
رعشة لذيذة .. ماذا لو يظل يهوي بلا توقف ، الى الأبد ؟ ماذا لو
يظل يعبر بهذا الصديق المضيء عن حقيقة أعماقي المظلمة ؟ منذ عام وأنا
أكتب .. بطرف قلبي الدقيق أحاول أن أحفر درب خلاصي في متاهات
عمري الصخرية .. بطرف قلبي الدقيق أحاول أن انسج حقيقة : أجد
حقيقة ، أسجد لحقيقة .. منذ عام كانت التفاحات الأربع كلها نضرة
ومتوردة ، لم أجرؤ على ان أقطعها بسكيني ، كنت خائفة منها ، ولم
أرض مع ذلك بإطفاء النور كي التهمها في الظلام ... منذ عام وعوالم
صمت محمومة تهذي في أعماقي ، تتغذى من وحشي وعزلي . توقف
المصعد فجأة وفتحت بابه انسنة تبسم . جميلة هي الأشياء الباسمة .
خرجت الى الشارع، وسرت لا أشعر بما حولي كعادتي .. لكنني استيقظت
فجأة على بسمه طفل، وصيحة فرح متوحدة ترددها ملايين الشفاه الراحشة،
ولحية بيضاء لعجوز ما رقصت منذ أمد بعيد .. وبدأت قوقعي تذوب
وتتلاشى ، وأحسست انني موجة حماس في الخضم المتلاطم ، تملكطني نشوة
الثورة ، نشوة الشعب المحتفل بذكرى ...

ووجدت حقيقة أحترمها وأزهو باحترامي لها .. وجدتها في ثرة
مشعل ، في التوهج العرييد لألعاب نارية على خد غيمة .. في اهزوجة
حية لأمة .. وجدت حقيقة في ان تذوب (الانا) في (نحن) ، في إن
تغيب جذوري مع اصالة جذورها وعراقتها ...

تبدأ الحياة حينما يبدأ الصراخ

يا صديقي ،

اكليل الخوف جدلناه من أشواك الرياء والتخاذل والضعف وحملناه ..
جواز دخول الى سوق الغرور رفعناه .. مسحناه .. بالكحل بالعطر ،
برشة رياء زيتناه .. في متاحف الوجوه الشمعية عرضناه ، عند أحذية مصقولة
عفرفناه .. ليضحكوا .. ليقولوا انا مهذبون .. ليقولوا انا عاقلون ..
ليمنحونا بركة حفلات - الكوكيتيل - بركة التبغ والكافيار ..
اكليل الخوف جدلناه من ضعفي وضعفك .. من خلايا - الأنا -
لسعها التخاذل المبتهل فاستحالت صفائر سرطانات خوف .. الاكليل يتضخم ،
من خلايا السرطان يرتزق ، بينما - الأنا - تذوب .
واتخذت الفواجع المصيرية في نفوسنا مظهراً اجتماعياً بليداً ..
ننظر الى الموت خلال اكليل السرطان المعطر ، فراه صندوقاً مقفلاً ،
نحصى النادبين وراءه ونبارك الميت تبعاً لعدد هم وألقابهم .. ونرى العرس
موثلاً .. والحب صفقة .. والاحترام ضريبة .
طويلاً جدلنا اكليل تخاذلنا خوفاً من ألف عين مقلها كحل ، وألف
شفة تنشر الشائعات في ألف زقاق ملون .. خوفاً من الوحش الخرافي
الذي يرى ولا يبصر ، تسحره طيبة ثوب حسنة الكي ويشير وحشية أظافره
صدق امرأة تجرؤ على ان تقول هذي انا .. تعبت .. اريد .. أرفض ..

يا نحن .. أين أضعنا وجودنا ؟
آلهة التمر رفعناها .. في موكب القطيع سجدنا لبلايتها .. من المقهى
الى الحفل الى الشارع زحفنا وراءها .. رعوقة الريح تحكمنا وسداجة
العاصفة تتلاعب بنا .. الاعرابي أكل آلهة التمر ، لو أكلنا آلهتنا الملوثة
لحنقنا أصابع الغثيان .
حتى تطل نجمة في أفقنا .. هدف نحترمه .. نتمنى أن نمنحه وجودنا ..
ونكتشف فجأة اننا لم نعد نملك ما نمنح .. أكاليل الخسوف عششت في
خلايانا .. غرست جذورها تلبس في أعماقنا ..
وتبدأ الحياة حينما يبدأ الصراع .. حينما نمتلك القدرة والجرأة على أن
نرى أين نحن فعلاً .. حينما تثور الأسئلة وتتدافع .. حينما نريد أو لا
نريد .. نختار ونرفض . وننتزع الاكليل ، فنتحرر فجأة من الخوف
الذي لم نكن لندركه ، ونرتقي في عذاب البحث عن وجودنا كي نمنح
النجمة إياه .

١٩٦١

عدت اليك يا هدا بي المتكسرة

إليك يا أول حب وأغلى حب .. إليك يا أوفى وأصدق من أحبيت،
إليك أيها الغائب أرفع متعب همساتي .. إليك ألون لهفة الحرف ، ولك
وحدك أنثر صمتي الضاح انشودة لاهثة الترف ..
كم رويت لهدوئك أحلام تفاهتي البلهاء ، وكانت عيناك تبسمان ..
وكم أرهقت حكمتك بتسرعي وجهلي ، وكانت عيناك تبسمان .. وكم
دمرت عهودنا بعنادي ، وظلت عيناك تبسمان ! واندفعت في الدروب
كتلة تضج بحماس المراهقة ولهب الاخلاص العفوي ، دقت باب المعرفة
بأظفري ، بناري ، بنهمي المجنون لمعرفة حقيقة الأشياء . حقيقة الحبيب
الذي يركع لي والناس الذين يحيطون بي .. حقيقة الصداقة والوفاء
والعبارات الناعمة التي يمسح بها الشبان وجهي :
واندفعت والتهبت .. تعثرت وانتصبت .. تأوهت وكتمت .. جريت
وتعبت وارتميت .. وظلت عيناك تبسمان ! ورجعت .. رجعت قطة مبتلة
أكلت منها عواصف الشتاء، عدت ولا شيء في العينين القلقتين سوى رماد
تتحب جمراته برعب مشمتر .. عدت بأصدافي الفارغة . وأهدابي
المتكسرة.. وأغمضت عيني كي لا أرى وجهك .. كنت أعرف ان عينيك
تبسمان وكانت بسمتك الحاتية أقسى من أي عتاب وأصدق من أقدم
غفران .

عبارتك المطمئنة المشجعة ابتلعها صمت الضباب .. ضجيج البحار التي
تصطخب بيننا والسهول والقمم التي تفرقنا تلتهم الصدى مترنحة سكرى
وأظل هنا وحدي .. تولد همساتك في فراغي وتعربد في صمت غرفتي ..
وأظل أحلم بدفء أعماقك .. وبالعينين أبداً تبسمان لي . كل شيء زائف
أبها الغالي ان لم تشاركني به . التصفيق أجوف الرنين .
الهمتاف متعب كالأنين .. وكل ليل فيه من آهتي ألف رعشة حنين ..
من أعماق ظلمة وحشتي أهتف باسمك .. من مغاور خيبي الداميسة
أنادي العينين اللتين تبسمان والصدر الحاني ، استرجع ذكرى ليالٍ طوال
حملني فيها بين ذراعيك .. أنت يا أبي المسافر .. يا أغلى أب وأوفى
صديق .. إليك أرفع شوقي الذبيح لحناً ملهوفاً يردد ويعيد : ستظل عيناك
تبسمان يا أبي .. ستظل عيناك تبسمان ! لا تخف علي بعد الآن .

١٩٦٠

حتى تظل نجمة

اني أتساءل أحياناً : لماذا يلد لي أن أضفي عليك يا حبيبي كثيراً من صفات الكمال ؟ لماذا أحرملك من إنسانيتك وأكرهك على الارتقاء إلى مصاف الآلهة، أو على الأقل إلى مصاف أبطال روايات العصور الوسطى ؟ لماذا أرفض أن أرى فيك ما أكره ؟ لماذا أتعامى ؟

هل هي بقية من لعنة الكمال ؟ من تحرقنا المبهمة ورغبتنا اللاواعية في أن نكون شيئاً مثالياً ؟ تلك الرغبة التي تصطدم بالواقع في أيام مراهقتنا الأولى عندما نكتشف أنه محكوم علينا بأن لا نكون إلا بشرًا، لا نستطيع الارتقاء إلى مصاف الآلهة لنهرب من الموت ، ولا نستطيع الهبوط إلى بهيمة الحيوانات لتتحرر من الألم .. نجرجر قيودهما في درب مظلمة البداية والنهاية ..

فهل في توهمنا - مع سابق تصميم وتصور - بأن الإنسان الذي نحب كامل نوع من التعويض ؟ أم أننا بحاجة إلى أن نحب الأشياء أكثر مما نحن بحاجة إلى أن نحبنا ؟

نريد أن نجد شيئاً نغمره بسيل العواطف الغامضة التي تتدفق من أعماقنا بركانية عمياء.. وحاجتنا إلى إيجاد من يستحق هذه العواطف مع تقديرنا لأناني لقيمتها يجعلنا نأبى أن نمنحها إلا لشبه إله .. ونحاول خلق شبه الإله

هذا .. تقيده بشكل معين من التصرفات التي تؤمن بها لأنانيتنا ارتقاءه الى مصاف الآلهة .. وهكذا نمارس ذروة الأنانية في أقصى لحظات تفانينا من أجله لأننا ننتقل من حبه هو نفسه الى عبادة الصورة المدهشة التي رسمناها له في أذهاننا ..

ترى لو منح كل منا فرصة يرى فيها « التابو » الذي صنعه بنفسه على حقيقته ، على حقيقته فعلاً ، هل يرضى الكثيرون بهذه التجربة الممزقة التي قد تطيح بشيء نحن بحاجة اليه كي نحبه ؟ أليس الحب جميلاً بما فيه من تجاهل وأوهام ؟ أليس في الحب من أنفسنا أكثر مما فيه من حقيقة الآخرين ؟

أنا قد منحت الفرصة لأعرف حقيقة التابو الذي قدست لأضعه في إطاره الانساني المادي الواقعي ، وأنا قد رفضتها ! لم أجرؤ .. بكل بساطة لم أجرؤ ! أحرقت المصنف دون أن أفتحه ... أمي ! لم أعرفها لكنني واثقة من انه كانت لي أم . سمعت الناس يقولون ان المدينة كلها بكّت يوم ماتت، وان أمواج البحر منذ ذلك اليوم تتسلل في الليالي المظلمة لتتمسح برخام قبرها .. أبي لم يحدثني عنها طيلة هذه الأعوام إلا نادراً.. حدثني عنها يوم ثار بسبب تصرفاتي وقال اني عبيدة ومتمردة .. ولم أنكر. ولكنه هدأ بعد لحظات وبدأ يحدثني بحنان ندي عن عناد أمي وتمردها.. ومنذ أعوام مغمرة في البعد ، أذكر اني كنت أسافر ليلاً معه .. السماء كانت مظلمة وجوفاء .. نجمة واحدة ظلت تضيء ، حلوة وحشية البريق .. سأله بعث طفلة : ما اسم هذه النجمة ؟ قال بنحشوع كاهن: هذه هي أمك ! وليلتها مزقت النجمة مدارها لتولد من جديد في ظلمة أعماقي ولأطلق عليها اسم أمي .

ومرت الأعوام وأمي نجمتي التي لم تهو . وأمي عروس الليل الهاربة من شرقة شرقية . وأحببتها . لماذا ؟ لا يهمني أن أعرف . جعلت منها كل رائع في الوجود كي أحبها . وأحببتها لأنها كذلك .. كان علي أن

أحب انساناً ما دون أن أخشى من عدم قدرته على الارتقاء الى مصاف الآلهة .. أنا انيتي كانت بحاجة الى الحبيب الذي تحرمه من حق الخطأ والالم والموت .. ولم أجده سواها ..

ومنذ أيام جاء أبي ووضع بين يدي مظروفاً مغلقاً وقال « خذي هذا المظروف .. لقد أخفيت لك فيه صور أمك ومذكراتها !! أظن انك اليوم جديرة به ! ستعرفين عنها شيئاً ما .. »

وخرج .. وبقيت وحدي أحرق بذعر الى المغلف العتيق .. وأتساءل .. أعرف عنها شيئاً ما ؟ وأنا التي رسمت ملامح وجهها الأسمر في طيات الستائر ليلة بعد ليلة .. أعرف عنها شيئاً ما ؟ وأنا التي طالما خلقت صدرها من عتمة غرفتي ، ودفنت فيه وجهي وانتحبت أيام وحشتي ... وأنا التي طالما حدثتها في أوهامي عن وحدتي .. وأنا التي مجدها وألتهتها كي أعبدتها .. وأنا التي نحت منها ما أهرب اليه حينما تفور ديدان الزيف وتطمس الأشياء ..

ماذا أفعل ؟ هل أفتح المظروف لأرى أن لأمي صورة ، وللناس كلهم صوراً ؟ وأرى في مذكراتها انها تجوع وتغضب وتخطيء وتحقد كأي عابر يصفر في الشارع ؟

ماذا ؟ أقرأ مذكراتها لانتزعها من حيث تلتصق في السماء ، نجمة وحشية الأضواء ، ولأضعها في إطارها الاجتماعي العادي ؟ لا .. لا أريد أن أصدق ..

وبحرص وثني على مقدساته ، أحرقت المغلف ولم أفتحه !! وظلت أُمي تلتصق في ركن السماء نجمة وحشية الأضواء ..

يا صائد المرجان

أبها الغريب الجريء .. رسالتك أجمل من أن تكون حقيقة وأصدق
من أن تكون خيالاً ، فيها وعد بربيع جديد يورق براري عمري ..
وعد بحب .. وعد ربيعي يرقص بين السطور .. تتسلق وروده المجدولة
خضرة السطور وتترلق بين الكلمات .. تدور حول الجمل ، يترسب عيبرها
في النقاط المبعثرة ، يترنح مع تهديج التعبير ، يتناثر في فضاء رسالتك
البوهيمية المسكرة .. برودي يغلي .. بسملة منسية تتسلل بفجور لتعربد
فوق شفتي وتنثر شعرها إشاعات أمل في ملامح وجهي .. فأنثشي ..
أنثشي .. وتنتشي الرسالة العجيبة .. سطورها العذبة ترقص مجنونة وتكاد
تقفز من الورق الأبله لتطوق جيدي وعنقي ، تدور حول خصري تلثم
أهدابي .. تختلط بأنفاسي وتنسل الى داخلي لتغرق في الأعماق . وأكاد
أسمع صدى ضحككتك مبهم الاثارة ، وأود أن ألثم كلماتك .. أمتص
وعودها .. أشمها ، أضحمها بقسوة ، أمضغها بنهم ، أبعث سطورها في
أضلعي ، أمزق حروفها ذرات أنثرها في دمي ، أحرقها مع لوعتي بنحوراً
صنوبري الأريج ..

وأجلس لأتأمل انصهار الخيال والحقيقة .. تعانق سحر الشرق
وبساطة الغرب .. غموض الحلم وصلابة الواقع .. وأشق دروب

أوهامي اليك ، أكسداً الظلام تنحسر عن طريقي .. أحجار
الشارع تود لو تلثم قدمي الصغيرة التي تطير وتكاد لا تمس من الأرض
شيئاً .. واصل إليك . ييسم بابك . ترقص المدادة السكرى على جدرانك
العقيقية .. تتمسح بخشب نافذتك وتنبهك الى وجودي .. لطفة عينيك
تخترق الظلام وتنحس نخدي المتهين بشوق متعب ، العندليب يدفع
حبيبته تحت جناحه في هناء مترف .. وأجلس لأكتب اليك ، لأحدثك
عن هذا كله .. ولكن ..

« قلبي يتزف مطر القدر الأزرق وأنا أكتب اليك :
أيها الغريب الجريء ، لو كنت تدري أحلامي ساعة مددت يدك
وصافحتني مودعاً لما تخلّيت عنها أبداً .. لو كنت تدري حنان ناري ،
لو كنت تسمع هدير أغواري ، لو كنت تحس تفجري ودماري لما
مضيت أبداً » .

فجأة ، أتوقف عن الكتابة اليك ، تهب نسمة مسمومة من الماضي ،
فحيحها يزحف وثيداً في أذني ، قاسي الليونة ، جارح الزوجة ...
يستيقظ ماضي الحية ويمد اخطبوطه أذرعاً من ندم .. من عدم .. أذرعاً
من نرف أعوامي ، من زعر غدي ، من عجزني عن الثقة برجل !

وأدرك اني أضعف من أن أحب وأجن من أن أثق .. وانني راضية
بضعفي ، بوحدتي ووحشتي .. أهذي موهنة .. أرقص ممزقة مشتتة ، لكنني
راضية بلوعتي ولهفتي .. راضية بأنامل الصمت تدغدغ جرحي .. عطر
السكينة ينحدر نرقي بينا أهذاب الليل الحانية تخفي كل شيء .. وأمزق
رسالي اليك بعد أن ولدت ميتة !

ابعث في الظلام نرق الحلم ونشوة اللقاء .. أدمر دارك المخملية
أرجوحة الشمس .. انثر جدرانك المرجانية مسكبة القمر .. أقطع مدادتك
الواشية وأخنق لهفتي الطفلة .. أبكي الأمنية التي ماتت في صقيع أيامي ..
ماتت قبل أن تولد !

لن أجيب على رسالتك فأنا لا أجرؤ على التصديق .. ويوم أراك ،
سأقف أمامك ضاحكة مخادعة .. كأنني ما اجتريت حروفك بنهم عطش ،
كأنني ما تمنيت أن أسكب نفسي في قبضتك ساعة صافحتني مودعاً .. ويوم
القاءك لن أقول شيئاً .. لكن ذرات صمّي المتعبة ستظل تهدي في عينيك :
« هل جئت تصيد اللؤلؤ في أعماقي الدامية ؟ أجب يا غيمة العطر ، هل
جئت تنهب بيادر صمّي وتوقظ أهداً سكيني الغافية ؟ رفقا بالجرح النائم
أيها الغريب ، رفقا بقوارير الطيب الملوثة ، بذعر الأطلال الرمادية وأنات
الشوق اللاهب .. رفقا بقداسة وحدتي وخيبيتي يا صائد المرجان .

١٩٦٠

خلود اللحظة باستنفادها

للحزن مفعول الحمرة في نفسي ، حيث تعربد الأفكار في رأسي كشعر
الجنيات المتطاير ، وأشعر بحاجة الى عينيك العمقتين اللتين لا أدري ماذا
وجدت فيها ولكنها أيقظتنا الجراح في نفسي . كنا نثرثر والرفاق، وصدى
التفاهة يتناثر مع ضحكاتنا البلهاء المدوية ، حين التقت نظراتنا فجأة .
بصورة غير عادية .. ورأيت حقيقيتي في عينيك ! ويا لها من لحظة مؤلمة
ممزقة حين يومض فجر المعرفة في القلب البشري الضال !
وهوت أفكارى شهياً محرقة تصرخ بي « ليتك كان لك دائماً » ،
وسألني : « ماذا بك ؟ » .

وتسلل صوت آلي من جوفي وأجاب « لا شيء ! » .. أجل !
لا شيء يا صديقي ، كل ما في الأمر انني أحسست فجأة ان كل
ما حولي يغوص ، والجلبة تضيق ، وأعماقي تدمى حينما تمنيت لو انك
كنت لي أبداً .. ان فكرة الاستمرار المثالية الخيالية تعاودني حيناً بعد
حين .. انها بقية من بقايا حنين المراهقة الأبله لوضع خطط للمستقبل ..
وكأنني أملك منك — أو من نفسي — شيئاً .. وأشعر بطفولتي المزمنة
تنأوه كلما تمنيت لو انك كنت لي دائماً ..
يا صديقي .. كل ما اجرؤ على أن أحلم به ، هو مجرد لحظات عابرة

مع عينيك ، فنحن مخلوقات مشوهة .. بلا غد .. بلا إرادة .. بلا حرية ..
العوبة للآلهة الثملة .. كل ما نزرعه ونحن نحلم تحصد رباح القدر حينما
تلهو . ولكننا نكتشف هذا كله بعد فوات الأوان ، فقد علمونا منذ
الطفولة ان الزواج يجب ان يتوج الحب . لماذا ؟ لأن الزواج بنظرهم
يعني الاستمرار والضمانة .. واننا إذا أردنا لحبنا الخلود فعلينا بالزواج !
أما أنا يا صديقي ، فلن يدور الاستمرار بخلدني بعد الآن ، لن
أشوه لحظاتنا الحلوة بالتفكير العقيم في المستقبل الذي أعرف جيداً اني
أفقه من ان احرك يدي الواهية صخرة من صخور .. الاستمرار مفقود
في عالمنا البشري ، انه وهم المراهقة ! في لقاء تقسم على الوفاء وعلى
ألا تفرقنا قوة في الأرض والسماء .. ويضحك منا بسخرية شيء مبهم في
أعمقنا ، فنحن لا نملك شيئاً في عالمنا هذا ، حتى ولا أنفسنا، ولا حريتنا
في أن نموت متى شئنا – أو على الأقل إذا شئنا – ، لنا ذاتنا في حدود
اللحظة التي نعيشها فكيف نهب لسوانا – حين تقسم على الوفاء – شيئاً
لا نملكه ؟

إلهية هي تلك الساعة التي تؤمن فيها معي بأنه قد لا يكون لنا غد ..
فتعطي وتجزل في العطاء ، وتمنحني من نفسك وروحك وكيانك .. وتعطي
أكثر مما تستطيع ! أنا احبك بضعفي وحيرتي وعجزتي وضياعي .. أود
ان أهبك في اللحظة التي – نكون – فيها كل طاقتي للحب .. أما إذا
جاء الغد – وقد لا يجيء – وجدتنى أمنيحك من جديد كل ما لدي ..
فالإنسان لا ينفد ، وأنا لا أعرف العطاء في الحب بالتقسيط ، ولا
أريد ثمن حبي عقد زواج !

الحب العابر هو الشيء الوحيد الذي يملكه الإنسان ، وبالتالي يستطيع
ان يمنحه .. وكل ما يقوله من بعد سراب . الفضيلة هي الاعتراف
بالحقيقة التي صنعها القدر وفرضها علينا ، ومهما كانت هذه الحقيقة شوهاء ،
فإنها بنظري خير من الأوهام المثالية والخدع التي نتبعج بها ونحن نعرف

اننا كاذبون ، ونحن نعرف ان انسانيتنا الضعيفة عاجزة عن منح اللحظة
صفة الاستمرار وبالتالي الخلود !

انا قادرة على أن أرسم الخلود في دربنا القصير ، فيضج جبين الفراغ
الميت ويتأوه السكون ويتلوى .. وتصرخ يا صديقي بملء فمك : أنا
موجود ، أنا أحيا .. أحس الأرض صلبة تحت قدمي .. وأرى ان في
السماء نجوماً حية ترتعش وتغمز لي .. وهذا الاحساس ليس بقليل ..
فأنا ما شعرت قط ان الأرض صلبة تحت قدمي .. لكنني معلقة في فضاء
متوتر مشدود .. أخشى السقوط كل لحظة ، او انني في سقوط مستمر
دون أن أدري ، لأنني لا اصطدم بشيء .. لا شيء حولنا يا صديقي !
نحن ذرتان ضائعتان في الفضاء كملايين الشهب المتناثرة المحترقة .. كرماد
سيجارة شيطانية يتلذذ بتدخينها قدرنا المريع !

وفي لحظتنا الخالدة المشحونة بالعمق والصدق ، والاحساس المشترك
بالعبث والضياح ، في مثل هذه اللحظات الخالدة ، حينما تتشابك أيدينا
وقلوبنا ، نحس ان الأرض الطيبة تنحني على أقدامنا المتشقة التي طالما انهكها
التخبط في الفراغ الوخاز وأدمتها خيوط العادات والتقاليد التي نعلق بها
بلا نهاية ..

ويوقظني صوتك من خواطري وأنت تسأل :

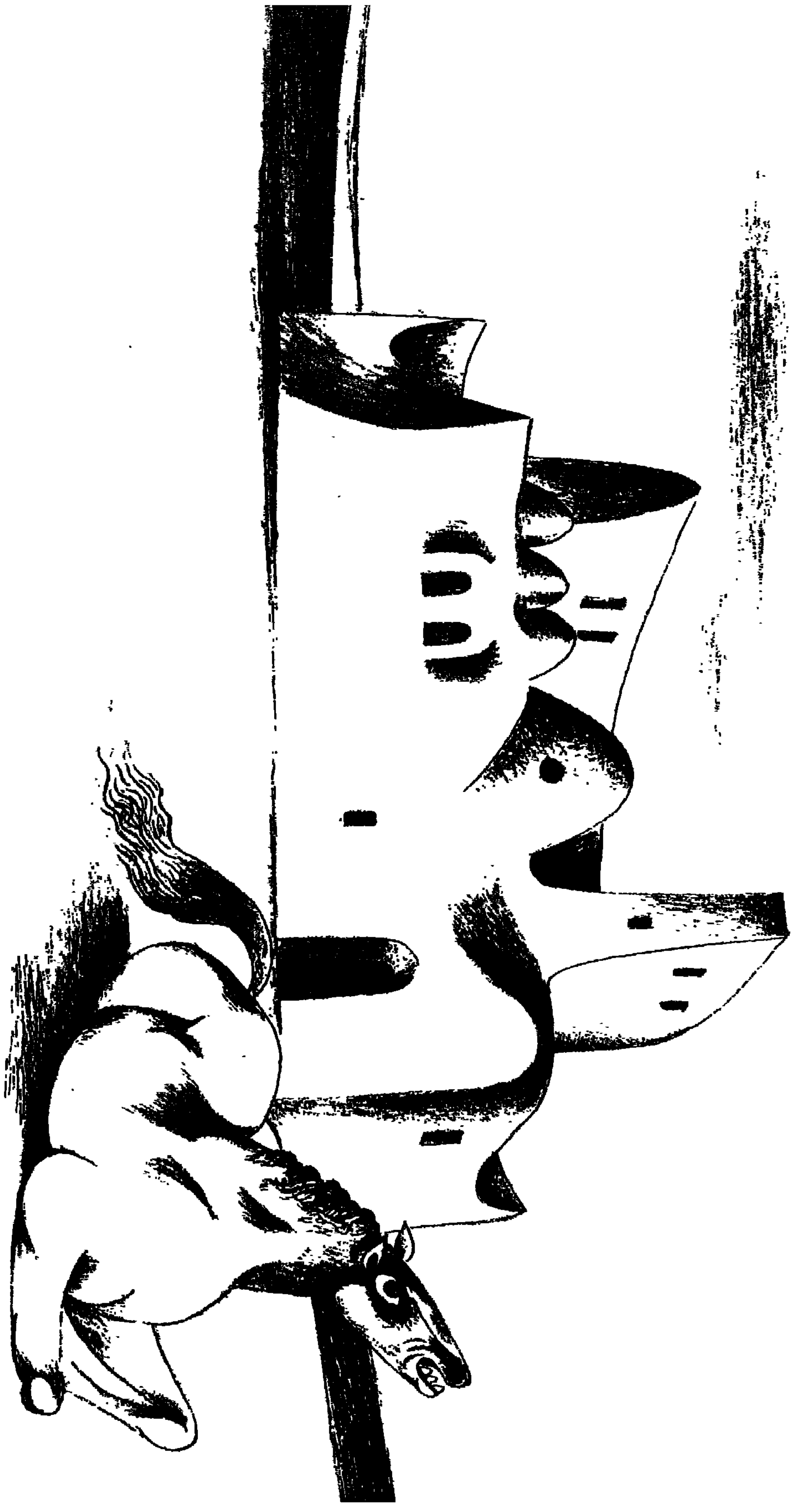
— ماذا بك ؟

يجيبك الصوت التقليدي :

— لا شيء يا صديقي !

وأحرق من جديد في عينيك وكأنني أتسلق نظراتك ، وأتسرب من
خلالها الى داخلك .. وينحني إلي ان بسمتك تضيء ! وأحس أنك قريب
قريب .. وان الأرض صلبة تحت قدمي بعد طول تشرد وضياح .

١٩٦٠



حب طفولي

بوحشة سنونو أضاع ربيعك أكتب عنك يا سيدي ، ولا أملك سوى
جمرة القلم ألهبها بشوقي وأذيتها على الورق بحيني . حرقه مشبوبة هي
أيامي من دونك . أكره أن أرى الليل يظلم وسهول القمر تغمز من بعيد..
وأنت بعيد ، بعيد .

وأكره أن أرى اني طفلة . أفيض شباباً وحيوية . دون أن تضميني
يداك القويتان .. وتهصرا الشوق والحنين .. أكره بعدك، انه يجعلني شديدة
الحساسية بمرور الزمن .. يملأني بشعور ووعي مبالغ به بالساعات والدقائق .
ما زال صدى صوتك الحار في أذني . ما زالت قسوة يديك في دمي .
لا ، لا تقل انك لن تعود ، فأنا أنتظرك . لا تقل انك صممت على
البقاء هناك .. فالليل يتأوه ويتلوى في صدري . وسهول القمر تزفر أنفاسها
وفي كل نسمة نداء حار لنا .. حار كنظراتك الغامضة ، كرجولتك المدمرة .
أحن الى أن أحس انك قريب ، تتحرك حولي .. أسمع الناس يتحدثون
عنك وعن مغامراتك .. أسمع حسادك ينتقدونك .. أرى الفتيات يتهاقن
عليك ، وأنا أرقبك بلذة وفرح لأنك موجود ، لأنني عرفتكم وأنست
بك ، وأحسست بالطمأنينة في وجودك .

ويوم تعود يا سيدي ، يوم تعود لن أقفز لأقف على قدميك ، وأشد
عنقي الى آخره كي أقبل جبينك .. لن أنهد على صدرك لأريح رأسي

المتعب وأبكى للمرة الأولى منذ أهوام . ساقف أمامك طفلة خرساء، وأمد لك يداً ميتة لأصافحك .. لأمس يدك دون أن أرتعش .. سأحديق فيك بوجه أبله وعينين باردتين.. كأنني ما لثمت رأسك ألف ألف مرة في أوهامي .. وقد أجد صوتاً يقول لك - « الحمد لله على السلامة » - .. ثم أجلس .. وأتشاغل عنك كأنني ما تمنيت أن أهبك عمري كله لتعود سالماً .. كأنني ما تساءلت كل لحظة ترى أي سماء تظلك ؟ وأي عيون ترقب سيجارتك وهي تحترق بين شفتيك ، فتشير في النفس خنياً الى الحريق بين الشفتين .. من يطفئ لك لفافتك - قبل أن تنتهي - بلذة طفولية غريسة .. من يتلذذ بجو الرجولة الساحق المبهم الذي يخلقه وجودك في كل مكان ؟ ولعلك ستقول بعد أن تلقاني كما قلت دائماً .. « يا لها من طفلة .. لا تهتم بغيابي ولا تحس بوجودي .. سأنتظر حتى تكبر » .. فالصدق في نظرك طفولة .. والعفوية سداجة .. والكتمان نقص في الاحساس .. والهدوء موت الشعور .

صديقي ، وأي حق لي في أن أناديك صديقي ؟ لا أدري، لعله شبح حنان ومض يوماً في عينيك .. لعله ظل لفظة صادقة صبغت حديثك ذات مرة .. لعلها بسمة ود وانس رقصت على شفتيك .. لعله ضياعي وحنيني اليك .

صديقي .. لماذا ذهبت وخلفتني هنا تائهة أحلم بحنانك وإرشادك ؟ ضائعة في عاصفة مجنونة .. أحس بأنك مسؤول عني أنت الذي رميت بي في هذه الدوامة . أنت الذي جعلتني أبحث عن النسيان في أي قلب . طفلة بريئة أنا أمامك .. ككل امرأة تشعر بأحاساس صادق .. وامرأة محنكة أنا أمامهم .. أمام عشرات العيون الشرهة التي تتمسح بي بشهوة . عشرات الشبان الذين يربضون أمام قدمي بأفواه مفتوحة ترقب لحمي الأسمر لتنهشه . أحبيتك ؟ لا يا سيدي .. لست مراهمقة لأقول اني أحبك .. للحب

مفهومه الخاص عندي .. انه اكتمال وتمام لا يتحقق إلا بوجود اثنين ..
قلبين .. جسدين .. رضا وتقبل روحي .. أما اللهفة والرغبة واللوعة من
جانب واحد فأنا لا أدعوها حباً لأنني لا أؤمن بالاكتفاء الذاتي في الغرام ..
أتراه شروع في حبك ؟ أم حب عن سابق تصور وتصميم ؟ أم انه مجرد
أمل في لقاء عابر مع رجل رائع الذكاء والتكوين ، رائع الرجولة ؟ لا
لا أظن ، وإلا لما فشلت في ملء فراغك بسواك ، والفراغ الذي خلفته
لم يملأه شاب بعد ، ولا مغامرة ، ولا أحلم بأن يعوضني عن غيابك
كائن كان .. انك لم تعد بالنسبة لي مجرد رجل أو مغامرة ، أو حلم
ليلة صيف ، لا أدري لماذا أضحيت كل ما أحبيت ذات يوم وفقدت .. وكل ما
كنت أتمني أن أملك وفشلت .. أضحيت جزءاً من حرقه الماضي ولوعة
الحاضر .. وأمل المستقبل .. أضحيت جزءاً من كياني .. من أفراحي
النفسية الداخلية ، ودواماتي الذاتية ، أضحيت الحنان بنظري ، الصديق ..
المرفاً .. الأمان .

انك لم تعاملني كصديق .. بل أكثر من صديق .. ولم تعاملني كرجل بل
كأسمى من رجل .. ومع ذلك لم تعاملني كرجل أو كصديق وهنا بعض
لوعتي .. يا لغرابتي وحيرتي ماذا أريد ؟ ماذا أريد منك أيها الغائب
البعيد ؟ لا أدري يا سيدي لا أدري .

سبعة أيام ، كانت فجر مأساتي الجديدة ، لم أدر وأنا أعيشها معك
كم كنت سعيدة .. سبعة أيام تلعب بقدرتي ، سبع بسيمات منك بعثت حطامي
وألهبت رمادي .. سبعة أيام يا سيدي ، فداك نفسي عن كل لحظة ..
عن كل ضحكة صادقة نبعت من أعماق قوادي لنكاتك ، عن كل لفظة
حانية أدفأتني بها عيناك .. سبعة أيام يا سيدي شيدت قصوراً وهدمت
قصوراً .. سبعة أيام ! لطف روحي .. ليتها كانت دهوراً ..

ويوم مضيت بدون وداع ، عدت كما كنت ، شهاباً منطفئاً يهوي
في ظلمات عمر ضائع .. ويوم مضيت سلبتي سلامي وهدوثي ، وأيقظت

فعاليتي وضجيجي . فأحسست انني كتلة من حيوية وصخب وانفعال ،
وان علي أن أفعل شيئاً، أن أنسى .. أن أدفن عذابني في قلوب الآخرين ..
وفتحت الجراح في قلوب كثيرة ، ولكنني فشلت في مداواة جراحي ..
خطر لي أن أتبعك الى حيث ذهبت .. الى أي مكان الى الجحيم .. ولكن
ماذا تقول اذا رأيتني أفتح باب غرفتك في الفندق كقطعة متعبة
دامعة العينين ؟ وماذا أقول ؟ أقول انني لا أحبك .. ولكنني تبتعتك
لأنني أطمئن اليك وأنس بصحبتك ؟ هل يمكنك أن تفهم انك كنزي
التمين وجزيرتي المشمسة المرجانية لمجرد انني أرتاح لك .. لوجهك القوي
الحنون .. ليدك الكبيرتين العجيبتين .. عجيب ! كل ما فيك عجيب !
والجزء الذي تخلفه حولك عجيب والطريقة التي تدخن بها لفافتك - وكأنك
تضم امرأة - عجيبة .. واحساسي تجاهك أعجب ما في الأمر ..

أمني أن تكون بجانبني، فأنا أتوق للحريق بين الشفتين .. أن ترعاني
وتبسم لي ، أن أقول لعينيك بكل جرأة دون أن أخشى فقدانك :
« لست طفلة كما تعتقد ، اقرب مني أكثر ، فما زال في المرأة نيران
لم تجربها .. لم تكتشفها نظراتك الخيرة ، اقرب لأعلمك ، أنا الطفلة ،
كيف تكون المرأة الحقيقية حينما تحب بصدق .. » ويوم تعود يا صديقي ..
يوم تعود .. سأمد لك يداً ممتة لأصافحك .. وسأحدق في وجهك المعبود
بعينين زجاجيتين .. وقد أجد بعض الشجاعة لأردد عبارة تقليدية (الحمد لله
على السلامة) .. وستقول في نفسك « يا لها من طفلة باردة الاحساس ..
ذهابي وعودتي لديها سواء .. سأنتظر حتى تكبر .. »

وستكبر الجراح يا سيدي .. ويزيد صمتي حتى تكبر أنت .. وتسمع
النداء الأخرس المحموم .. وتفهم كيف تحب المرأة بطفولتها ..

فهرست

٧	مقدمة
٩	لأنني أحبيتك
١٢	في عتق الزجاجة كان لقاءنا
١٧	كان يا ما كان حب
٢١	لأن الحرية خبز الفجر
٢٣	شيء اسمه الحب
٣٠	يا غربي
٣٤	لو لم يصوب طفلك مسدسه الى عيني
٤٠	لسامير صليبي أغني الليلة
٤٤	وأغمدت نفسي في خنجرك
٥٠	أتحداك بحبي
٥١	يا حزننا الآتي
٥٣	حبنا شطرنج بالمراسلة
٥٨	لا شفاء منك

٦٠	أنوثي ليست حصان طروادة
٦٤	كل وجه يعذبني
٦٦	لماذا أيها الشقي
٧٠	حين سرقوك من بين ذراعيّ
٧٣	شهقة في سيمفونية ليل الغرباء
٧٦	أنت ومدينتي
٨٠	فوق الثلوج
٨٢	أعياد فتاة عمياء
٨٦	وتمر الأيام يا غريب
٩٠	كلمات دافئة
٩٣	كنت أتمنى يا زوجها .
٩٦	يوميات فتاة مريضة
١٠٢	وجهك الغامض زهرة الليل الوحشية
١٠٥	دهاليز لا شمس فيها
١٠٨	آه يا صديقي الحبيب بردي
١١٢	الى مليونير تافه
١١٨	رسالة الى « لا أحد »
١٢١	أمي يا لؤلؤة لن تعود
١٢٤	ما في حدا لا تندهي ما في حدا
١٢٨	دع المساء الحريفي ينسكب في فجوات العيون المتعبة
١٣٢	لأن أراني البيض ماتت
١٣٥	وجدت حقيقة في أن تذوب « الأنا » في « نحن »

١٣٨	تبدأ الحياة حينما يبدأ الصراع
١٤٠	عدت إليك بأهدابي المتكسرة
١٤٢	حتى تظل نجمة
١٤٥	يا صائد المرجان
١٤٨	خلود اللحظة باستنفادها
١٥٢	حب طفولي

نشرت محتويات هذا
الكتاب في الصحف التالية

الأخبار السورية	الحوادث اللبنانية
» الوحدة	» الاسبوع العربي
» النصر	» البرق
» العلم	» لسان الحال
» صوت العرب	» الجمهورية
» الأيام	» الأحد
	» شهرزاد

